

يسئالونك عن الروح

للإمام فخر الدين الرازي
من تفسيره .. مفاتيح الغيب

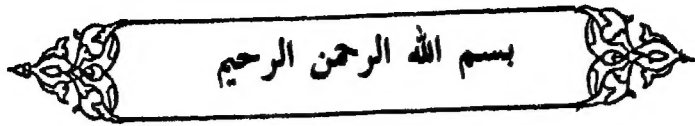
دراسة وتحقيق

محمد عبد العزيز الهادي

مكتبة القرآن

للطباعة والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق
القاهرة - ت ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١

جميع الحقوق محفوظة
لمكتبة القرآن



حمداً لله وشكراً أن هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .
وبعد

فقد طلع علينا بعض الماديين ذات يوم يقول :

إن « ملف » الروح قد أغلق !

وإن قضية الروح قد حُسمت !

ولا نملك إلا أن نقول له في ردنا عليه ما قاله الإمام الأكبر فضيلة
الشيخ محمود شلتوت في فتاواه :

« وباب البحث عن حقيقتها مفتوح لم يمنع منه نص ديني » .

« وهي في ذلك ككثير مما ينتفع بآثاره دون أن يعرف كنهه » .

لقد وضع « إمامنا الأكبر » النقط على الحروف في مسألة الروح ،
وهل يفتى ومالك بالمدينة !؟

وفي بحث له يتساءل الإمام الأكبر عن الروح قائلاً :

« ماهي الروح ؟ وأين تكون قبل دخولها الجسد ؟ وأين تسكن
بعد خروجها منه ؟ وهل تظل في عالمنا هذا ؟ وماهي حقيقة تحضير
الأرواح ؟ وهل هو صحيح ؟ » .

ثم يجيب قائلاً :

« الروح هي القوة التي تحدث الحياة في الكائنات الحية من نبات
وحیوان وإنسان . وقد غلبت على مابه حياة الحس والحركة ، والعقل
والتفكير ، وأضيفت إلى الحيوان والإنسان » .

ولم يرد في الدين نص واضح صريح يشرح حقيقتها ويحدد وجودها ، وكانت في نظر الدين كغيرها من سائر الحقائق الكونية تركت للبحث البشرى يبحث عنها ، ويصيب أو يخطئ على حد سواء .

ويتناول اختلاف الباحثين في حقيقة الروح فيقول :

« ولقد خاض الإنسان قديماً وحديثاً ملياً وغير ملي في البحث عن حقيقتها وأثرت عنه فيها أقوال وآراء . قال فيها الإمام الألويسي بعد أن ذكر جملة منها : (وقيل وقيل إلى نحو ألف قول) ثم قال : والمعول عليه عند المحققين قولان ، ذكرهما واختار أولهما ، وهو أن الروح جسم نوراني علوى حى ، يخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، سار فيه سريان الماء في الورد ، لا يقبل التحلل ولا التفرق ، يفيض على الجسم الحياة وتوابعها مادام الجسم صالحاً لقبول الفيض ، وقد أيداه ابن القيم ، وقال : أنه الصواب ولا يصح غيره ، وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، وأدلة العقل والفطرة ، وبرهن عليه بما يزيد عن مائة دليل . »

ونرى مع ذلك أن هذا رأى لم يشرح حقيقة الروح ، وإنما ذكر خواص ولوازم ، أكثرها سلبى لا يفيد الحقيقة ولا يدل على الكنه .

ثم يحدثنا عن اختلافهم في قدم الروح قبل اتصالها بالجسد فيقول :

« وكما اختلف العلماء في حقيقتها هكذا ، اختلفوا أيضاً في قدمها وحدوثها وفي مستقرها قبل اتصالها بالأجسام ، والقائلون بحدوثها اختلفوا أيضاً في زمن حدوثها ، هل حدثت قبل الأجسام أو بعد

الأجسام ؟ وليس في النصوص أكثر من أن نفخها في الجسم يكون بعد تنسيته ، والمفهوم من نفخها تحصيل آثارها في الجسم .

وعن مصير الروح بعد مفارقتها للجسد يحدثنا إمامنا فيقول :

« وكما اختلفوا في هذا اختلفوا أيضاً في موتها وبقائها ، وفي مستقرها بعد مفارقة الأبدان » .

والذى ترشدنا إليه الآثار الدينية أنها تخرج من بدن الإنسان فيكون الموت ، وأنها تبقى ذات إدراك ، تسمع السلام عليها ، وتعرف من يزور قبر صاحبها ، وتدرك لذة النعيم وألم الجحيم ، وأن مقرها يختلف بعد مفارقة البدن بتفاوت درجاتها عند الله .

ويرد على أولئك الذين يغلقون ملف الروح في وجه الباحثين قائلاً :

لا مانع من البحث عن حقيقتها :

« وعلى رغم كل هذا فلا تزال حقيقتها من الغيب الذى لم يكشفه الله للإنسان وهى فى ذلك ككثير مما ينتفع الإنسان بآثاره دون أن يعرف كنهه .

وباب البحث عن حقيقتها مفتوح لم يمنع منه نص دينى .

ولا حجة للقائلين بحرمة البحث عنها فى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾^(١) فقد رجح

(١) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

بعض العلماء أن المراد منها في الآية القرآن نفسه ، وقد سماه الله روحاً ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾^(١) وسابق الآية ولاحفها يرشد إلى صحة هذا الرأى .

وإذن فلا يتعين أن يكون المسئول عنه هو روح الحياة ، على أنه لو كان هو روح الحياة فليس في الآية أكثر من أنها من أمر الله ، وهو لا يمنع البحث عن حقيقتها .

وماذا عن تحضير الأرواح ؟

« وكما لم يرد نص في شيء من ذلك كله ، لم يرد شيء فيما يختص بتحضيرها وتسخيرها لدعوة الإنسان ، كما لم يدل عليه حس موثوق به أو تجربة صادقة ؛ وكل ما نسمعه في ذلك لا يخرج عن مظاهر خداع وإلهاء بالخيالات لا يلبث أن ينكشف أمره .

وإذن فنحن في حِل من رفضه إلى أن يقوم الدليل على صدقه . وحسب المؤمن في إيمانه أن يقف عندما أخبر الله به ، وصح عن رسوله ، وليس عليه أن يحمل نفسه عقيدة أو رأياً لا يتوقف عليه صحة الإيمان » .

ومن حق القارئ المسلم علينا أن نضع بين يديه بحثين جليلين عن حقيقة الروح : أحدهما للإمام فخر الدين الرازى من كتابه « مفاتيح الغيب » .

أما الآخر فللإمام الآلوسى صاحب « روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني » .

١ (١) الآية ٥٢ من سورة التورى .

وإذا كنا قد قدمنا للباحثين بما قاله الإمام الأكبر محمود شلتوت شيخ
الجامع الأزهر فإننا قد وقفنا وقفه متأنية مع الكاتب الكبير عباس
محمود العقاد مستعينين بما جاء في كتابه « الفلسفة القرآنية » .

لقد ألقى إمامنا الشيخ محمود شلتوت الضوء على ما قاله الإمام
الآلوسي ، وألقى أستاذنا العقاد الضوء على ما قاله فخر الدين الرازي .

وبهذا نكون قد وضعنا بين يدي المسلم ما يحمي عقيدته وفكره من
دعاة المادية ، ودعمناه بما يفحم به أولئك الذين يهرفون بما لا يعرفون
ويفترون على الله الكذب وهم يعلمون .

وليس مثلنا معهم إلا كمثل الذى ينطق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء
صُم بُكم عمى فهم لا يعقلون .

أما أنتم — إخوة الإسلام — فللروح عندكم حقها وللجسد حقه ..
فتعالوا نبحث عن روحنا .. وسوف يقول كل منا : لقد كانت روحى
بعيدة عنى فأصبحت اليوم قريبة منى .

القاهرة فى : شعبان سنة ١٤٠٨ هـ

أبريل سنة ١٩٨٨ م

محمد عبد العزيز الهلاوى



هذ الكتاب فى كلمات

يضم هذا الكتاب بحثين حول الروح :
أحدهما : للإمام فخر الدين الرازى من تفسيره الكبير
« مفاتيح الغيب » .
والثانى : للإمام الآلوسى من تفسيره الكبير « روح
المعانى » .

وكلاهما تفسير للآية الكريمة :

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾

وإذا كان الآلوسى خاتمة المحققين ، وعمدة المدققين وإمام
المفسرين ومفتى بغداد وعالمها فى القرن الثالث عشر الهجرى .
فإن ذلك لم يمنعنا من وقفة مع شاهدين على عصرنا كان لهما
وجودهما عند المسلمين جميعاً هما : الإمام الشيخ محمود
شلتوت ، والكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد .

تفسير مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي ومنزلة العلمية

يقول الأستاذ محمد أبوشهبة عميد كلية أصول الدين في كتابه :
« الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير » ما يأتي عن مفاتيح
الغيب ومؤلفه ومنزلة كتابه العلمية :

ومؤلفه هو الإمام ، النظار ، المتكلم فخر الدين : محمد ابن العلامة
ضياء الدين : عمر الرازي^(١) ، المشتهر بخطيب الري ، وهو عربي ،
قرشي من سلالة سيدنا أبي بكر الصديق — رضى الله عنه — ، وكان
مولده سنة ٥٨٣ هـ ثلاث وثمانين وخمسمائة في مدينة الري ، وكانت
حينئذ العاصمة الكبرى لبلاد العراق العجمي ، وقد بادت الآن ،
وتوجد خرائبها ، وآثارها على مقربة من مدينة : « طهران » عاصمة
إيران .

وقد تنقل الإمام فخر الدين في البلاد الأعجمية ، من الري إلى
خراسان ، وبخارى إلى العراق ، والشام ، وكان أكثر استقراره
وتدريسه « بخوارزم »^(٢) ، ثم استوطن مدينة : « هراه » : من البلاد
الأفغانية ، وكانت وفاته بها سنة ٦٠٦ هـ ست وستمائة^(٣) .

وقد كان الإمام من كبار أهل العلم بالأصلين : أصول الدين ،

(١) الرازي نسبة إلى الري على غير قياس .

(٢) مدينة شرق بحيرة قزوين .

(٣) التفسير ورحاله ص ٦٨ ، ٦٩ .

وأصول الفقه ، وكبار علماء الكلام على مذهب أهل السنة . فمن ثم : ناقش — أكثر — أهل الاعتزال وغيرهم ، وكذلك : كان عالماً بالفلسفة ، ومذاهب الفلاسفة ، فمن ثم : سلك مسلك الحكماء الإلهيين، فصاغ أدلته في مباحث الإلهيات ، على نمط استدلالاتهم العقلية ، ولكن مع تهذيبها ، بما يوافق أصول أهل السنة ، وتعرض لآراء الفلاسفة ، في قدم العالم ، وذكر وشبههم ، وتفنيدها ، ونقضها في مواضع من كتابه .

وكذلك : سلك مسلك الحكماء الطبيعيين في الكونيات ، فتكلم في خلق السماوات ، والأرض ، وما فيها من إنسان ، وحيوان ، ونبات ، مبيناً حكمة الله في مخلوقاته ، مستدلاً بها على وجود الله ، وعلمه ، وقدرته وإرادته وسائر صفاته .

وقد قصد الإمام الرازي من دراسته التفسيرية : أن يبين تفوق الحكمة القرآنية على سائر الطرق الفلسفية ، وانفراد القرآن بهداية العقول البشرية ، إلى غايات الحكمة ، من طريق العصمة ، فقد كتب في وصيته التي أملاها عند احتضاره :

« لقد اختبرت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التي وجدتها في القرآن : لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله ، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك الحقائق العميقة والمناهج الخفية » .

قيمة تفسيره العلمية

إن تفسير: « مفاتيح الغيب » من أجل التفاسير، وإن كان أطال في الاستدلال ورد الشبه إطالة كادت تغطي على كونه كتاب تفسير. ولست مع ابن عطية الذى قال فيه: « فيه كل شيء إلا التفسير »، فإنه — رحمه الله — مع الاستطراد إلى ذكر الأدلة والبراهين، قد وفى التفسير حقه، ولولا أن هذا ليس من غرضى فى هذا الكتاب، لأقمت على هذا ألف دليل، ومن مميزات هذا التفسير الجليل: أنه يكاد يخلو من الإسرائيليات، وإذا ذكر شيئاً فذلك لأجل أن يبطله، وذلك كما صنع فى قصة هاروت، وماروت، وقصص داود، وسليمان، وغيرهما، كما تعرض بالتزيف لبعض المرويات التى تخل بعصمة النبى ﷺ - وأبطلها، كما صنع فى قصة الغرائق.

نعم قد ذكر بعض المرويات التى تعتبر من الإسرائيليات، وذلك مثل ما روى فى: « ن »، وأنه الحوت الذى على ظهره الأرض، وإن كان ضعفه فيما ضعف من أقوال فى هذه الآية، ولكن لم يعول على التضعيف على مخالفتها للعقل، أو ضعفها، من جهة النقل، أو كونها من الإسرائيليات، وإنما اعتمد على وجه آخر يرجع إلى النحو^(١).

(١) انظر تفسير الفخر فى قوله تعالى: « ن والقلم وما يسطرون ».

مع الإمام فخر الدين الرازي
في تفسيره الكبير مفاتيح الغيب
﴿ ويسألونك عن الروح ﴾

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ (الإسراء : آية ٨٥) .

يقول الإمام فخر الدين الرازي :

في هذه الآية مسائل :

المسألة الأولى : أقوال المفسرين فيها :

للمفسرين في الروح المذكور في هذه الآية أقوال ، أظهرها أن المراد منه الروح الذي هو سبب الحياة ..

رؤى أن اليهود قالوا لقريش : اسألوا محمداً عن ثلاث ، فإن أخبركم باثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي : اسألوه عن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، وعن الروح .. فسألوا رسول الله ﷺ عن هذه الثلاثة ، فقال ﷺ :

« غداً أخبركم » .. ولم يقل : إن شاء الله .. فانقطع عنه الوحي أربعين يوماً ، ثم نزل الوحي بعده :

﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً ، إلا أن يشاء الله ﴾ (١) .. ثم فسّر لهم قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين وأبهم قصة الروح ، ونزل فيه قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ وبين أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة حقيقة الروح ، فقال : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .

(١) الكهف : آية ٢٣ - ٢٤ .

الطعن في هذه الرواية :

ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه :

* أولها : أن الروح ليس أعظم شأنًا ولا أعلى مكاناً من الله تعالى ، فإذا كانت معرفة الله تعالى ممكنة ، بل حاصلة ، فأى مانع يمنع من معرفة الروح ؟!

* ثانيها : أن اليهود قالوا : إن أجاب عن قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين ولم يُجب عن الروح فهو نبي .. وهذا كلام بعيد عن العقل ؛ لأن قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين ليستا إلا حكاية من الحكايات ، وذكر الحكاية يمتنع أن يكون دليلاً على النبوة . وأيضاً فالحكاية التى يذكرها إما أن تعتبر قبل العلم بنبوته أو بعد العلم بنبوته ، فإن كان قبل العلم بنبوته كذبوه فيها ، وإن كان بعد العلم بنبوته فحينئذ صارت نبوته معلومة قبل ذلك فلا فائدة في ذكر هذه الحكاية .

وأما عدم الجواب عن حقيقة الروح فهذا يبعد جعله دليلاً على صحة النبوة .

* ثالثها : أن مسألة الروح يعرفها أصاغر الفلاسفة وأراذل المتكلمين ، فلو قال الرسول ﷺ . إني لا أعرفها ، لأورث ذلك ما يوجب التحقير والتنفير ؛ فإن الجهل بمثل هذه المسألة يفيد تحقير أى إنسان كان ، فكيف الرسول الذى هو أعلم العلماء وأفضل الفضلاء !!؟

* رابعها : أنه تعالى قال في حقه : ﴿ الرحمن عَلم القرآن ﴾^(١) ،

(١) الرحمن : آية ١ .

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (١) ..
وقال : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٢) .. وقال في صفة القرآن :
﴿ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّمِّنْ ﴾ (٣) .. وكان ﷺ يقول : « أَرْنَا الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ » .. فمن كان هذا حاله وصفته كيف يليق به أن يقول : أنا لا أعرف هذه المسألة مع أنها من المسائل المشهورة المذكورة بين جمهور الخلق !!؟

المختار عندنا :

بل المختار عندنا أنهم سألوه عن الروح ، وأنه ﷺ أجاب عنه على أحسن الوجوه .

وتقريره أن المذكور في الآية أنهم سألوه عن الروح ، والسؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة .

المباحث المتعلقة بالروح :

أحدها : أن يُقال ماهية الروح ؟ : أهو متحيّز أو حالّ في المتحيّز ، أو موجود غير متحيّز ولا حالّ في المتحيّز ؟

ثانيها : أن يقال الروح : قديمة أو حادثة .

ثالثها : أن يُقال الأرواح هل تبقى بعد موت الأجسام أو تنفنى ؟

رابعها : أن يُقال : ما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها ؟

(١) النساء : آية ١١٣ .

(٢) طه : آية ١١٤ .

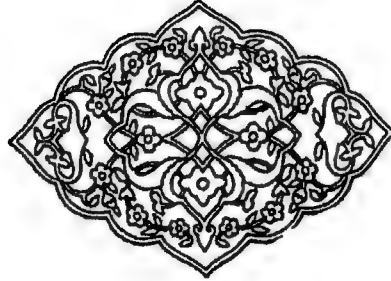
(٣) الأنعام : آية ٥٩ .

وبالجملة ، فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة .. وقوله :
﴿ويسألونك عن الروح﴾ ليس فيه ما يدل على أنهم عن هذه المسائل
سألوا أو عن غيرها ، إلا أنه تعالى ذكر له في الجواب عن هذا السؤال
قوله : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ ..

وهذا الجواب لا يليق إلا بمسألتين من المسائل التي ذكرناها :

إحدهما : السؤال عن ماهية الروح .

والثانية : عن قدمها وحدثها .



الفصل الأول

ماهية الروح !

أهو ..

متحيز أو حالّ في المتحيز ؟!

أو ..

موجود غير متحيز ولا حالّ في المتحيز ؟!

حقيقة الروح وماهيته

أما المبحث الأول :

فهم قالوا : ما حقيقة الروح وماهيته ؟

— أهو عبارة عن أجسام موجودة في داخل هذا البدن متولدة من امتزاج الطبايع والأخلاط ؟

— أو هو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب ؟

— أو هو عبارة عن عرض قائم بهذه الأجسام ؟

— أو هو عبارة عن موجود يغير هذه الأجسام والأعراض ؟

فأجاب الله عنه بأنه موجود مغاير لهذه الأجسام ولهذه الأعراض ، وذلك لأن هذه الأجسام أشياء تحدث من امتزاج الأخلاط والعناصر . وأما الروح فإنه ليس كذلك ، بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث قوله ﴿ كن فيكون ﴾ .. فقالوا : لم كان شيئاً مغايراً لهذه الأجسام ولهذه الأعراض ؟

فأجاب الله عنه : بأنه موجود يحدث بأمر الله ، وتكوينه وتأثيره في إفادة الحياة لهذا الجسد ، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته الخصوصية فيه ، فإن أكثر حقائق الأشياء وماهياتها مجهولة .

فإننا نعلم أن السكنجبين^(١) له خاصية تقتضي قطع الصفراء ، فأما إذا أردنا أن نعرف ماهية تلك الخاصية وحقيقتها الخصوصية ، فذاك غير

(١) شراب مركب من حامض وحلو . معرب فارسيته : سركانكبين . [المعجم الوسيط] .

معلوم ، فثبت أن أكثر الماهيات والحقائق مجهولة ولم يلزم من كونها مجهولة نفيها ، فكذلك هاهنا ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .
وأما المبحث الثاني :

فهو أن لفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل .. قال تعالى : ﴿ وما أمرُ فرعون برشيده ﴾ ^(١) .. وقال : ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ ^(٢) أى فعلنا .. فقلوه : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ أى من فعل ربي .
وهذا الجواب يدل على أنهم سألوه أن الروح قديمة أو حادثة .. فقال : بل هى حادثة ، وإنما حصلت بفعل الله وتكوينه وإيجاده .. ثم احتج على حدوث الروح بقوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .. يعنى أن الأرواح فى مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ، ثم يحصل فيها العلوم والمعارف ، فهى لا تزال تكون فى التغيير من حال إلى حال ، وفى التبديل من نقصان إلى كمال ، والتغيير والتبديل من أمارات الحدوث .

فقلوه : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ يدل على أنهم سألوه : أن الروح هل هى حادثة ؟ فأجاب بأنها حادثة واقعة بتخليق الله وتكوينه ، وهو المراد من قوله : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ .
ثم استدل على حدوث الأرواح بتغيرها من حال إلى حال ، وهو المراد من قوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .. فهذا ما نقوله فى هذا الباب والله أعلم .

(١) هود : آية ٩٧ .

(٢) هود : آية ٦٦ .

المسألة الثانية : الأقوال في نفس الروح

المسألة الثانية :

ذكر سائر الأقوال المقولة في نفس الروح المذكورة في هذه الآية : اعلم أن الناس ذكروا أقوالاً أخرى سوى ما تقدم ذكره .

* القول الأول : الروح هو القرآن :

إن المراد من هذا الروح هو القرآن .. قالوا : وذلك لأن الله تعالى سمي القرآن في كثير من الآيات روحاً ، واللائق بالروح المستول عنه في هذا الموضع ليس إلا القرآن ، فلا بد من تقرير مقامين :

* المقام الأول :

تسمية الله القرآن بالروح يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾^(١) .. وقوله : ﴿ يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ﴾^(٢) . وأيضاً السبب في تسمية القرآن بالروح أن

(١) الشورى : آية ٥٢ .

(٢) النحل : آية ٢ .. قال أهل التحقيق : الحسد موات كثيف مظلم ، فإذا اتصل به الروح صار حياً لطيفاً نورانياً ، فظهرت آثار النور في الحواس الخمس . ثم الروح أيضاً ظلمانية جاهلة ، فإذا اتصل العقل بها صارت مشرقة نورانية ، كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ . ثم العقل أيضاً ليس بكامل النورانية والصماء والإشراق حتى يستكمل بمعرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ومعرفة أحوال عالم الأرواح والأجساد ، وعالم الدنيا والآخرة . ثم إن هذه المعارف الشريفة الإلهية لا تكمل ولا تصفو إلا بنور الوحي والقرآن .

إذا عرفت هذا فنقول : القرآن والوحي به تكمل المعارف الإلهية ، والمكاشفات الربانية ، وهذه المعارف بها يشرق العقل ويصفو ويكمل . والعقل به يكمل جوهر الروح ، والروح به يكمل حال الحسد .. وعند هذا يظهر أن الروح الأصل الحقيقي هو الوحي والقرآن . لأن به يحصل الخلاص من رقدة الجهالة ، ونوم الغفلة ، وبه يحصل الانتقال من حضيض البهيمية إلى أوج الملكية . أهـ . انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ، المجلد العاشر ، ص ٢٢٤ .

بالقرآن تحصل حياة الأرواح والعقول ، لأن به تحصل معرفة الله تعالى ومعرفة ملائكته ومعرفة كتبه ورسله ، والأرواح إنما تحيا بهذه المعارف .

★ وأما المقام الثاني :

وهو أن الروح اللائق بهذا الموضع هو القرآن لأنه تقدّمه قوله : ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ (١) ، والذي تأخر عنه قوله : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾ (٢) إلى قوله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (٣) .

فلما كان ما قبل هذه الآية في وصف القرآن وما بعدها كذلك ، وجب أيضاً أن يكون المراد من هذا الروح القرآن حتى تكون آيات القرآن كلها متناسبة متناسقة ، وذلك لأن القوم استعظموا أمر القرآن فسألوا أنه من جنس الشعر أو من جنس الكهانة ، فأجابهم الله تعالى بأنه ليس من جنس كلام البشر ، وإنما هو كلام ظهر بأمر الله ووحيه وتنزيله ، فقال : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ .. أى القرآن ظهر بأمر ربي وليس من جنس كلام البشر .

• القول الثاني : الروح مَلَكٌ من الملائكة :

الروح المسئول عنه في هذه الآية ملك من ملائكة السموات ،

(١) الإسراء : آية ٨٢ .

(٢) الإسراء : آية ٨٦ .

(٣) الإسراء : آية ٨٨ .

وهو أعظم قدراً وقوة ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ (١)

ونقلوا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : هو مَلَك له سبعون ألف وجه ، لكل وجه سبعون ألف وجه ، لكل وجه سبعون ألف لسان ، لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ، ويخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة .

قالوا : ولم يخلق الله تعالى خلقاً أعظم من الروح غير العرش ، ولو شاء أن يتلع السموات السبع والأرضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل .

بيان ضعف هذا القول :

ولقائل أن يقول : هذا القول ضعيف .. وبيانه من وجوه :

• الأول :

أن هذا التفصيل لما عرفه علي ، فالنبي أولى أن يكون قد عرفه ، فلم لم يخبرهم به !!؟

وأيضاً أن علياً ما كان ينزل عليه الوحي ، فهذا التفصيل ما عرفه إلا من النبي ﷺ ، فلم ذكر النبي ﷺ ذلك الشرح والبيان لعلي ولم يذكره لغيره !!؟

: الثاني :

أن ذلك الملك إن كان حيواناً واحداً وعاقلاً واحداً ، لم يكن في

(١) النبأ : آية ٣٨ .

تكثير تلك اللغات فائدة ، وإن كان المتكلم بكل واحدة من تلك اللغات حيواناً آخر لم يكن ذلك الملك واحداً ، بل يكون ذلك مجموع ملائكة .

• القول الثالث : الروح الذى هو سبب الحياة :

إن هذا شئ مجهول الوجود فكيف يُسأل عنه ؟ .. وأما الروح الذى هو سبب الحياة فهو شئ تتوفر دواعى العقلاء على معرفته ، فصرف هذا السؤال إليه أولى .

• القول الرابع : الروح هو جبريل :

وهو قول الحسن وقتادة : أن هذا الروح جبريل ، والدليل عليه أنه تعالى سمى جبريل بالروح فى قوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾ (١) .. وفى قوله : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ (٢) .. ويؤكد هذا أنه تعالى قال : ﴿ قل الروح من أمرى ﴾ فى جبريل .. وقال حكاية عن جبريل : ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك ﴾ (٣) .

فسألوا الرسول : كيف جبريل فى نفسه ؟ وكيف قيامه بتبليغ الوحي إليه ؟ .

• القول الخامس : الروح خلق ليسوا من الملائكة :

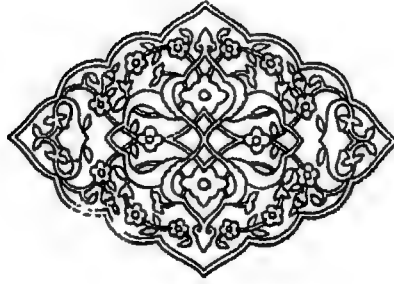
قال مجاهد : الروح خلق ليسوا من الملائكة على صورة بنى آدم يأكلون ولهم أيد وأرجل ورؤوس .. قال أبو صالح : يشبهون الناس وليسوا بالناس .

(١) الشعراء : آية ١٩٣ - ١٩٤ .

(٢) مريم : آية ١٧ .

(٣) مريم : آية ٦٤ .

ولم أجد في القرآن ولا في الأخبار الصحيحة شيئاً يمكن التمسك به
في إثبات هذا القول . وأيضاً فهذا شيء مجهول فيبعد صرف هذا
السؤال إليه ، فحصل ما ذكرناه في تفسير الروح المذكورة في هذه
الآية هذه الأقوال الخمسة .. والله أعلم بالصواب .



المسألة الثالثة : في شرح مذاهب الناس في حقيقة الإنسان

اعلم أن العلم الضروري حاصل بأن هاهنا شيئاً إليه يشير الإنسان بقوله : « أنا » .

وإذا قال الإنسان : علمتُ ، وفهمتُ ، وأبصرتُ ، وسمعتُ ، وذقتُ ، وشممتُ ، ولمستُ ، وغضبتُ .. فالمشار إليه لكل أحد بقوله : أنا ، إما أن يكون جسماً أو عَرَضاً ، أو مجموع الجسم والعرض ، أو شيئاً مغايراً للجسم والعرض ، أو من ذلك الشيء الثالث ، فهذا ضبط معقول .

• القسم الأول — رأى المتكلمين :

وهو أن يُقال : إن الإنسان جسم ، فذلك الجسم إما أن يكون هو هذه البنية ، أو جسماً داخلياً في هذه البنية ، أو جسماً خارجاً عنها .

رأى جمهور المتكلمين :

أما القائلون بأن الإنسان عبارة عن هذه البنية المحسوسة وهذا الجسم المحسوس ، فهم جمهور المتكلمين .. وهؤلاء يقولون : الإنسان لا يحتاج تعريفه إلى ذكر حد أو رسم ، بل الواجب أن يقال : الإنسان هو الجسم المبنى بهذه البنية المحسوسة . واعلم أن هذا القول عندنا باطل ، وتقديره أنهم قالوا : الإنسان هو هذا الجسم المحسوس .. فإذا أبطلنا كون الإنسان عبارة عن هذا الجسم المحسوس ، وأبطلنا كون الإنسان محسوساً ، فقد بطل كلامهم بالكلية .

بطلان رأى المتكلمين .. وبيان أن الانسان مغاير لهذا الجسد :
والذى يدل على أنه لا يمكن أن يكون هذا الإنسان عبارة عن هذا
الجسم وجوه :

* الحجة الأولى :

أن العلم البديهي حاصل بأن أجزاء هذه الجثة متبدلة بالزيادة
والنقصان تارة بحسب النمو والذبول ، وتارة بحسب السمن والهزال .
والعلم الضروري حاصل بأن المتبدل المتغير مغاير للثابت الباقي ،
ويحصل من مجموع هذه المقدمات الثلاثة العلم القطعى بأن هذا
الإنسان ليس عبارة عن مجموع هذه الجثة .

* الحجة الثانية :

أن الإنسان حال ما يكون مشغول الفكر متوجه الهمة نحو أمر معين
مخصوص ، فإنه فى تلك الحالة يكون غافلاً عن جميع أجزاء بدنه وعن
أعضائه وأبعاضه ، مجموعها ومفصلها ، وهو فى تلك الحالة غير غافل
عن نفسه المعينة ، بدليل أنه فى تلك الحالة قد يقول : غضبتُ
واشتهيتُ ، وسمعتُ كلامك ، وأبصرتُ وجهك .. وتاء الضمير
كناية عن نفسه ، فهو فى تلك الحالة عالم بنفسه المخصوصة ، وغافل
عن جملة بدنه وعن كل واحد من أعضائه وأبعاضه . ويكون المعلوم
غير المعلوم ، فالإنسان يجب أن يكون مغايراً لجملة هذا البدن ولكل
من أعضائه وأبعاضه .

* الحجة الثالثة :

أن كل أحد يحكم عقله بإضافة كل واحد من هذه الأعضاء إلى
نفسه ، فيقول : رأسى وعينى ويدي ورجلى ولسانى وقلبي ،

والمضاف غير المضاف إليه ، فوجب أن يكون الشيء الذي هو الإنسان مغايراً لجملة هذا البدن ولكل واحد من هذه الأعضاء .

فإن قالوا : قد يقول : نفسى وذاتى ، فيضيف النفس والذات إلى نفسه . فيلزم أن يكون الشيء وذاته الحقيقية المخصوصة التى يشير إليها كل أحد بقوله : (أنا) ، فإذا قال : نفسى وذاتى ، فإن كان المراد البدن ، فعندنا أنه مغاير لجوهر الإنسان ، أما إذا أريد بالنفس والذات المخصوصة المشار إليها بقوله : (أنا) فلا نسلم أن الإنسان يمكنه أن يضيف ذلك الشيء إلى نفسه بقوله : إنسانى ، وذلك لأن عين الإنسان ذاته ، فكيف يضيفه مرة أخرى إلى ذاته ١٩ .

* الحجة الرابعة :

أن كل دليل على أن الإنسان يمتنع أن يكون جسماً فهو أيضاً يدل على أنه يمتنع أن يكون عبارة عن هذا الجسم ، وسيأتى تقرير تلك الدلائل .

* الحجة الخامسة :

إن الإنسان قد يكون حياً حال ما يكون البدن ميتاً ، فوجب كون الإنسان مغايراً لهذا البدن .. والدليل على صحة ما ذكرناه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ (١) .. فهذا النص صريح فى أن أولئك المقتولين أحياء ، والحس يدل على أن هذا الجسد ميت .

(١) آل عمران : آية ١٦٩ . وسيفصل الإمام الفخر الرازى القول فى هذه الآية فى فصل آخر مستقل .

✽ الحجة السادسة :

أن قوله تعالى : ﴿النار يُعرضون عليها غدواً وعشياً﴾^(١) وقوله : ﴿أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَاراً﴾^(٢) ، يدل على أن الإنسان يحيا بعد الموت .. وكذلك قوله ﷺ : « أنبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار »^(٣) ، وكذلك قوله ﷺ : « القبر روضه من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار »^(٤) وكذلك قوله ﷺ : « من مات فقد قامت قيامته »^(٥) .

كل هذه النصوص تدل على أن الإنسان يبقى بعد موت الجسد ، وبديهة العقل والفطرة شاهدان بأن هذا الجسد ميت ، ولو جوزنا كونه حياً جاز مثله في جميع الجمادات ، وذلك عين السفسطة . وإذا ثبت أن الإنسان شيء وكان الجسد ميتاً لزم أن الإنسان شيء غير هذا الجسد .

✽ الحجة السابعة :

قوله ﷺ في خطبة طويلة له : « حتى إذا حُمِلَ الميّت على نعشه رُفِرَ روحه فوق النعش ، ويقول : يا أهلي ويا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعتُ المال من حِلِّه وغير حِلِّه ، فالغنى لغيري والتبعة عليّ ، فاحذروا مثل ما حلَّ لي » .

(١) غافر : آية ٤٦ .

(٢) نوح : آية ٢٥ .

(٣) روى ابن ماجه في سننه من حديث شلداد بن أوس : « إن الله قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » . انظر كتاب الإقامة حديث ١٠٨٥ ، وكتاب الجنائز . من حديث أبي الداء بزيادة « فنبى الله حتى يرزق » حديث رقم ١٦٣٧ .

(٤) أخرجه الترمذى في أبواب القيامة من حديث أبي سعيد : « إنما القبر روضه من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٥) قال في المقاصد : له ذكر في أكثر واذكرها ذم اللغات ، ورواه الديلمى عن أنس رفعه بلفظ : إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته . انظر كشف الخفاء ٣٦٨/٢ حديث رقم ٢٦١٨ .

وجه الاستدلال أن النبي ﷺ صرح بأن حال ما يكون الجسد محمولاً على النعش بقى هناك شئ ينادى ويقول : « يا أهلى ويا ولدى ، جمعت المال من حله وغير حله » ومعلوم أن الذى كان الأهل أهلاً له وكان جامعاً للمال من الحرام والحلال ، والذى بقى فى رقبته الوبال ليس إلا ذلك الإنسان ، فهذا تصريح بأن فى الوقت الذى كان فيه الجسد ميتاً محمولاً كان ذلك الإنسان حياً باقياً فاهماً ، وذلك تصريح بأن الإنسان شئ مغاير لهذا الجسد ولهذا الهيكل .

* الحجة الثامنة :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ ^(١) . والخطاب بقوله : ارجعى ، إنما هو متوجه عليها حال الموت ، فدل هذا على أن الشئ الذى يرجع إلى الله بعد موت الجسد يكون حياً راضياً عن الله ويكون راضياً عنه الله ، والذى يكون راضياً ليس إلا الإنسان . فهذا يدل على أن الإنسان بقى حياً بعد موت الجسد . والحى غير الميت ، فالإنسان مغاير لهذا الجسد .

* الحجة التاسعة :

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ ^(٢) . أثبت كونهم مردودين إلى الله الذى هو مولاهم حال كون الجسد ميتاً ، فوجب أن يكون ذلك المردود إلى الله مغايراً لذلك الجسد الميت .

(١) ، الفجر : آية ٢٧ — ٢٨ . وسيأتى المزيد حول هاتين الآيتين إن شاء الله تعالى .

(٢) الأنعام : آية ٦١ — ٦٢ .

* الحجة العاشرة :

نرى جميع فِرَق الدنيا من الهند والروم والعرب والعجم وجميع أرباب الملل والنحل من اليهود والنصارى والمجوس والمسلمين وسائر فِرَق العالم وطوائفهم يتصدقون عن موتاهم ، ويدعون لهم بالخير ، ويذهبون إلى زياراتهم ، ولولا أنهم بعد موت الجسد بقوا أحياء لكان التصديق عنهم عبثاً ، والدعاء لهم عبثاً ، ولكان الذهاب إلى زيارتهم عبثاً

فالإطباق على هذه الصدقة وعلى هذا الدعاء وعلى هذه الزيارة يدل على أن فطرتهم الأصلية سليمة شاهدة بأن الإنسان شيء غير هذا الجسد ، وأن ذلك الشيء لا يموت ، بل الذى يموت هذا الجسد .

* الحجة الحادية عشرة :

أن كثيراً من الناس يرى أباه أو ابنه بعد موته فى المنام ويقول له : اذهب إلى الموضع الفلانى فإن فيه ذهباً دفنته لك ، وقد يراه فيوصيه بقضاء دين عنه ، ثم عند اليقظة إذا فتش كان كما رآه فى النوم من غير تفاوت ، ولولا أن الإنسان يبقى بعد الموت لما كان كذلك . ولما دلّ هذا الدليل على أن الإنسان يبقى بعد الموت ودلّ الحس على أن الجسد ميّت كأن الإنسان مغايراً لهذا الجسد الميت .

* الحجة الثانية عشرة :

أن الإنسان إذا ضاع عضو من أعضائه مثل أن تُقطع يده أو رجله ، أو تُقلع عيناه ، أو تُقطع أذناه إلى غيرها من الأعضاء ، فإن ذلك الإنسان يجد من قلبه وعقله أنه هو عين ذلك الإنسان ، ولم يقع فى عين ذلك الإنسان تفاوت ، حتى أنه يقول : أنا ذلك الإنسان الذى

كنت موجوداً قبل ذلك ، إلا أنه يقول أنهم قطعوا يديّ ورجليّ .
وذلك برهان يقيني على أن ذلك الإنسان شيء مغاير لهذه الأعضاء
والأبعض ، وذلك يبطل قول من يقول : الإنسان عبارة عن هذه
البنية المخصوصة .

* الحجة الثالثة عشرة :

أن القرآن والأحاديث يدلان على أن جماعة من اليهود قد مسخهم
الله وجعلهم في صورة القردة والخنازير .. فنقول : إن ذلك الإنسان
هل بقي حال ذلك المسخ أم لم يبق ؟ .. فإن لم يبق كان هذا إماتة
لذلك الإنسان وخلقاً لذلك الخنزير ، وليس هذا من المسخ في شيء .
وإن قلنا : إن ذلك الإنسان بقي حال حصول ذلك المسخ فنقول
على ذلك التقدير : ذلك الإنسان باقٍ وتلك البنية وذلك الهيكل غير
باقي ، فوجب أن يكون ذلك الإنسان شيئاً مغايراً لتلك البنية .

* الحجة الرابعة عشرة :

أن رسول الله ﷺ كان يرى جبريل عليه السلام في صورة دحية
الكلبي (١) ، وكان يرى إبليس في صورة الشيخ النجدي ، فهأنا بنية
الإنسان وهيكله وشكله حاصل مع أن حقيقة الإنسان غير حاضلة ،
وهذا يدل على أن الإنسان ليس عبارة عن هذه البنية وهذا الهيكل .
والفرق بين هذه الحجة والتي قبلها أنه حصلت صورة هذه البنية
مع عدم هذه البنية وهذا الهيكل .

(١) هو دحية بن خليفة الكلبي وقد حباه الله جلالاً .

* الحجة الخامسة عشرة :

أن الزانى يزنى بفرجه ، فيضرب على ظهره ، فوجب أن يكون الإنسان شيئاً آخر سوى الفرج وسوى الظهر .. ويُقال إن ذلك الشيء يستعمل الفرج في عمل والظهر في عمل آخر ، فيكون المتلذذ والمتألم هو ذلك الشيء ، إلا أنه تحصل تلك اللذة بواسطة ذلك العضو ، ويتألم بواسطة الضرب على هذا العضو .

* الحجة السادسة عشرة :

أنى إذا تكلمت مع زيد وقلت له : افعل كذا أو لا تفعل كذا ، فال مخاطب بهذا الخطاب والمأمور والمنهى ليس هو جهة زيد ولا حدقته ولا أنفه ولا فمه ، ولا شيئاً من أعضائه بعينه .. فوجب أن يكون المأمور والمنهى والمخاطب شيئاً مغايراً لهذه الأعضاء .

وذلك يدل على أن ذلك المأمور والمنهى غير هذا الجسد .. فإن قالوا : لم لا يجوز أن يُقال : المأمور والمنهى جملة هذا البدن لا شيء من أعضائه وأبعاضه ؟ قلنا بوجه التكليف على الجملة : إنما يصح لو كانت الجملة (١) فاهمة عالمة ، فنقول : لو كانت الجملة فاهمة عالمة ، فإما أن يقوم بمجموع البدن علم واحد ، أو يقوم بكل واحد من أجزاء البدن علم على حدة .

والأول يقتضى قيام العَرَض بالحال الكثيرة وهو محال .. والثانى يقتضى أن يكون كل واحد من أجزاء البدن عالماً فاهماً مدركاً على سبيل الاستقلال ، وقد بينّا أن العلم الضرورى حاصل بأن الجزء المعين من البدن ليس فاهماً مدركاً بالاستقلال ، فسقط السؤال .

(١) جملة البدن .

* الحجة السابعة عشرة :

أن الإنسان يجب أن يكون عالماً ، والعلم لا يحصل إلا في القلب ،
فيلزم أن يكون الإنسان عبارة عن الشيء الموجود في القلب .. وإذا
ثبت هذا بطل القول بأن الإنسان عبارة عن هذا الهيكل ، وهذه
الجثة . إنما قلنا إن الإنسان يجب أن يكون عالماً؛ لأنه فاعل مختار ..
والفاعل المختار هو الذى يفعل بواسطة القلب والاختيار ، وهما
مشروطان بالعلم ؛ لأن مالا يكون مقصوداً امتنع القصد إلى تكوينه ،
فثبت أن الإنسان يجب أن يكون عالماً بالأشياء ، وإنما قلنا إن العلم
لا يوجد إلا في القلب للبرهان والقرآن :

أما البرهان ، فلأننا نجد العلم ضرورى بأننا نجد علومنا من ناحية
القلب .

وأما القرآن فأيات نحو قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلْمِ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ
بِهَا ﴾^(١) وقوله : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾^(٢) ، وقوله :
﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾^(٣) ..

وإذا ثبت أن الإنسان يجب أن يكون عالماً ، وثبت أن العلم ليس إلا
في القلب ، ثبت أن الإنسان شيء في القلب أو شيء له تعلق بالقلب ..
وعلى التقديرين فإنه يبطل قول من يقول : الإنسان هو هذا الجسد
وهذا الهيكل .

(١) الأعراف : آية ١٧٩ .

(٢) المجادلة : آية ٢٢ .

(٣) الشعراء : آية ١٩٣ — ١٩٤ .

المسألة الرابعة : بيان حقيقة الإنسان .. وهل هو محسوس ؟

وفي هذا البحث بيان أن الإنسان غير محسوس ، وهو أن حقيقة الإنسان شيء مغاير للسطح واللون . وكل ما هو مرئي فهو إما السطح وإما اللون ، وهما مقدمتان قطعتان ، ويُنتج هذا القياس أن حقيقة الإنسان غير مرئية ولا محسوسة ، وهذا برهان يقينى .
اعلم أن الأجسام الموجودة في هذا العالم السفلى ، إما أن تكون أبحد العناصر الأربعة ، أو ما يكون متولداً من امتزاجها .

ويمتنع أن يحصل في البدن الإنسانى جسم عنصرى خالص ، بل لابد وأن يكون الحاصل جسماً متولداً من امتزاجات هذه الأربعة ، فنقول :

أما الجسم الذى تغلب عليه الأرضية ، فهو الأعضاء الصلبة الكثيفة كالعظم والغضروف والعصب والوتر والرباط . والشحم واللحم والجلد ، ولم يقل أحد من العقلاء الذين قالوا : الإنسان شيء مغاير لهذا الجسد بأنه عبارة عن عضو معين من هذه الأعضاء ، وذلك لأن هذه الأعضاء كثيفة ثقيلة ظلمانية ، فلا جرم ، لم يقل أحد من العقلاء بأن الإنسان عبارة عن أحد هذه الأعضاء ، وأما الجسم الذى تغلب عليه المائية فهو الأخلاط الأربعة ، ولم يقل أحد في شيء منها إنه الإنسان ، إلا في الدم ، فإن منهم من قال : إنه هو الروح ، بدليل أنه إذا خرج لزم الموت .

أما الجسم الذى تغلب عليه الهوائية والنارية فهو الأرواح .. وهى نوعان :

أحدهما : أجسام هوائية مخلوطة بالحرارة الغريزية متولدة إما فى القلب أو فى الدماغ ، وقالوا : إنها هى الروح ، وإنها هى الإنسان .. ثم اختلفوا : فمنهم من يقول : الإنسان هو الروح الذى فى القلب .. ومنهم من يقول : إنه جزء لا يتجزأ فى الدماغ ... ومنهم من يقول : الروح عبارة عن أجزاء نارية مختلطة بهذه الأرواح القلبية والدماغية وتلك الأجزاء النارية وهى المسماة بالحرارة الغريزية ، وهى الإنسان .

ومن الناس من يقول : الروح عبارة عن أجسام نورانية سماوية لطيفة ، والجوهر على طبيعة ضوء الشمس ، وهى لا تقبل التحلل والتبدل ولا التفرق ولا التمزق ، فإذا تكوّن البدن وتمّ استعداده وهو المراد بقوله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ ﴾ (١) نفذت تلك الأجسام الشريفة السماوية الإلهية فى داخل أعضاء البدن نفاذ النار فى الفحم ، ونفاذ دهن السمسم فى السمسم ، ونفاذ ماء الورد فى جسم الورد .

ونفاذ تلك الأجسام السماوية فى جوهر البدن هو المراد بقوله : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي ﴾ (٢) .

ثم إن البدن مادام ييقى سليماً قابلاً لنفاذ تلك الأجسام الشريفة بقى حياً .. فإذا تولدت فى البدن أخلاط غليظة منعت تلك الأخلاط الغليظة من سريان تلك الأجسام الشريفة فيها ، فانفصلت عن هذا البدن ، فحينئذ يعرض الموت .

(١) المحر : آية ٢٩ .

(٢) المحر : آية ٢٩ .

فهذا مذهب قوى شريف يجب التأمل فيه ، فإنه شديد المطابقة لما ورد في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت .

.. فهذا تفصيل مذاهب القائلين بأن الإنسان جسم موجود في داخل البدن .. وأما أن الإنسان جسم موجود خارج البدن فلا أعرف أحداً ذهب إلى هذا القول .

أما القسم الثاني :

وهو أن يُقال الإنسان عَرَضٌ حَالٌ في البدن .. فهذا لا يقول به عاقل ، لأن من المعلوم بالضرورة أن الإنسان جوهر ، لأنه موصوف بالعلم والقدرة والتدبر والتصرف ، ومن كان كذلك كان جوهرأ .. والجوهر لا يكون عرضاً ، بل الذى يمكن أن يقول به كل عاقل هو أن الإنسان يشترط أن يكون موصوفاً بأعراض مخصوصة .

وعلى هذا التقدير فللناس فيه أقوال ..

• القول الأول :

أن العناصر الأربعة إذا امتزجت وانكسرت سَوْرَةٌ كل واحد منها بسورة الآخر حصلت كيفية معتدلة هي المزاج .. ومراتب هذا المزاج غير متناهية ، فبعضها هي الإنسانية ، وبعضها هي الفرسية .. فالإنسانية عبارة عن أجسام موصوفة متولدة عن امتزاجات أجزاء العناصر بمقدار مخصوص ، هذا قول جمهور الأطباء ومنكرى بقاء النفس ، وقول أبى الحسين البصرى من المعتزلة .

• القول الثاني :

أن الإنسان عبارة عن أجسام مخصوصة بشرط كونها موصوفة بصفة الحياة والعلم والقدرة . والحياة عرض قائم بالجسيم .. وهؤلاء

أنكروا الروح والنفس وقالوا : ليس هاهنا إلا أجسام مؤتلفة موصوفة بهذه الأعراض المخصوصة ، وهى الحياة والعلم والقدرة .. وهذا مذهب أكثر شيوخ المعتزلة .

• القول الثالث :

أن الإنسان عبارة عن أجسام موصوفة بالحياة والعلم والقدرة ، والإنسان إنما يمتاز عن سائر الحيوانات بشكل جسده وهيئة أعضائه وأجزائه ، إلا أن هذا مشكل ، فإن الملائكة قد يتشبهون بصور الناس ، فهاهنا صورة الإنسان حاصلة مع عدم الإنسانية ، وفى صورة المسخ معنى الإنسانية حاصل مع أن هذه الصورة غير حاصلة ، فقد بطل اعتبار هذا الشكل فى حصول معنى الإنسانية طرداً وعكساً .

أما القسم الثالث :

وهو أن يقال الإنسان موجود ليس بجسم ولا جسمانية ، فهو قول أكثر الإلبيين من الفلاسفة القائلين ببقاء النفس المثبتين للنفس معاداً روحانياً وثواباً وعقاباً وحساباً روحانياً ..

وذهب إليه جماعة عظيمة من علماء المسلمين مثل الشيخ أبى القاسم الراغب الأصفهاني والشيخ أبى حامد الغزالي رحمهما الله .. ومن قدماء المعتزلة معمر بن عباد السلمى .. ومن الشيعة الملقب عندهم بالشيخ المفيد .. ومن الكرامية جماعة .

القول بإثبات النفس :

واعلم أن القائلين بإثبات النفس فريقان :

الأول : وهم المحققون ، منهم من قال : الإنسان عبارة عن هذا الجوهر المخصوص ، وهذا البدن ، وعلى هذا التقدير فالإنسان غير

موجود في داخل العالم ولا في خارجه ، وغير متصل في داخل العالم ولا في خارجه ، وغير متصل بالعالم ولا منفصل عنه .. ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، كما أن إله العالم لا تعلق له بالعالم إلا على سبيل التصرف والتدبير .

الفريق الثاني : الذين قالوا : النفس إذا تعلقت بالبدن اتحدت بالبدن ، فصارت النفس عين البدن ، والبدن عين النفس ، ومجموعهما عند الاتحاد هو الإنسان .. فإذا جاء وقت الموت بطل هذا الاتحاد وبقيت النفس وفسد البدن .

فهذه جملة مذاهب الناس في الإنسان .. وكان ثابت بن قرة يثبت النفس ويقول : إنها متعلقة بأجسام سماوية نورانية لطيفة غير قابلة للسكون والتمسك والتمزق ، وأن تلك الأجسام تكون سارية في البدن ، ومادام يبقى ذلك السريان بقيت النفس مدبرة للبدن ، فإذا انفصلت تلك الأجسام اللطيفة عن جوهر البدن انقطع تعلق النفس عن البدن .



النفس ليست جسماً

المسألة الخامسة : الأدلة العقلية لإثبات ذلك

احتج القوم بوجوه كثيرة بعضها قوى وبعضها ضعيف ..
والوجوه القوية بعضها قطعية وبعضها إقناعية .. فلنذكر الوجوه
القطعية :

✽ الحجة الأولى :

لاشك أن الإنسان جوهر ، فإما أن يكون جوهرًا متحيزًا أو غير
متحيز .. والأول باطل ، فتعين الثاني .. والذي يدل على أنه يمتنع أن
يكون جوهرًا متحيزًا أنه لو كان كذلك لكان كونه متحيزًا غير تلك
الذات ، ولو كان كذلك لكان كل ما علم الإنسان ذاته المخصوصة
وجب أن يعلم كونه متحيزًا بمقدار مخصوص ، وليس الأمر كذلك ،
فوجب ألا يكون الإنسان جوهرًا متحيزًا ، فنفتقر في تقرير هذا الدليل
إلى مقدمات ثلاث :

— المقدمة الأولى : لو كان الإنسان جوهرًا متحيزًا لكان كونه
متحيزًا عين ذاته المخصوصة ، والدليل عليه أنه لو كان تحيزه صفة قائمة
لكان ذلك المحل من حيث هو مع قطع النظر عن هذه الصفة ، إما أن
يكون متحيزًا أو لا يكون . والقسمان باطلان ، فبطل القول بكون
التحيز صفة قائمة بالمحل ، إنما قلنا إنه يمتنع أن يكون محل التحيز لأنه
يلزم كون الشيء الواحد متحيزًا مرتين ، ولأنه يلزم اجتماع المثليين ،
ولأنه ليس جعل أحدهما ذاتًا والآخر صفة أولى من العكس ، ولأن

التحيز الثانى إن كان عين الذات فهو المقصود ، وإن كان صفة لزم التسلسل ، وهو محال .. وإنما قلنا إنه يمتنع أن يكون محل التحيز غير متحيز لأن حقيقة التحيز هو الذهاب فى الجهات والامتداد فيها ، والشئ الذى لا يكون متحيزاً لم يكن له اختصاص بالجهات وحصوله فيها ليس بمتحيز محال .. فثبت بهذا أنه لو كان الإنسان جوهرأ متحيزأ لكان تحيزه غير ذاته المخصوصة .

— المقدمة الثانية : لو كان تحيز ذاته المخصوصة عين ذاته المخصوصة لكان متى عرف ذاته المخصوصة فقد عرف كونها متحيزة . والدليل عليه أنه لو صارت ذاته المخصوصة معلومة وصار تحيزه مجهولأ لزم اجتماع النفي والإثبات فى الشئ الواحد وهو محال .

— المقدمة الثالثة : أننا قد نعرف ذاتنا حال كوننا جاهلين بالتحيز والامتداد فى الجهات الثلاث ، وذلك ظاهر عند الاختبار والامتحان ، فإن الإنسان حال كونه مشغولأ بشئ من المهمات مثل أن يقول لعبده : لما فعلت كذا ؟ ولم خالفت أمرى وإنى أبالغ فى تأديبك وضربك ؟ .. فعندما يقول : لم خالفت أمرى ؟ يكون عالماً بذاته المخصوصة ، إذ لو لم يعلم ذاته المخصوصة لامتنع أن يعلم أن ذلك الإنسان خالفه ، ولامتنع أن يخبر نفسه بأنه على عزم أن يؤدبه ويضربه .. ففى هذه الحالة يعلم ذاته المخصوصة ، مع أنه فى تلك الحالة لا يخطر بباله حقيقة التحيز والامتداد فى الجهات والحصول فى الحيز .

فثبت بما ذكرنا أنه لو كان ذات الإنسان جوهرأ متحيزأ لكان تحيزه عين ذاته المخصوصة ، ولو كان كذلك لكان كل ما علم ذاته المخصوصة فقد علم التحيز ، وثبت أنه ليس كذلك ، فيلزم أن يقال : ذات الإنسان ليس جوهرأ متحيزأ وذلك هو المطلوب .

فإن قالوا : هذا معارض بأنه لو كان جوهرًا مجردًا لكان كل من عرف ذات نفسه عرف كونه جوهرًا مجردًا ، وليس الأمر كذلك .. قلنا : الفرق ظاهر لأن كونه مجردًا معناه أنه ليس بمتحيز ولا حالاً في المتحيز ، وهذا السلب ليس عين تلك الذات المخصوصة ، لأن السلب ليس عين الثبوت .. وإذا كان كذلك لم يبعد أن تكون تلك الذات المخصوصة معلومة ، وأن لا يكون ذلك السلب معلوماً بخلاف كونه متحيزاً ، فإننا قد دللنا على أن تقدير كون الإنسان جوهرًا متحيزاً يكون تحيزه عين ذاته المخصوصة ، وعلى هذا التقدير يمتنع أن تكون ذاته معلومة ويكون تحيزه مجهولاً ، فظهر الفرق .

* الحجة الثانية :

النفس واحدة ، ومتى كانت واحدة وجب أن تكون مغايرة لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه ، فهذه الحجة مبنية على مقدمات :
— المقدمة الأولى : هي قولنا : النفس واحدة ، ولنا هاهنا مقامان : تارة ندعى العلم البديهي فيه .. وأخرى نقيم البرهان على صحته .
أما المقام الأول ، وهو إدعاء البديهة، فنقول : المراد من النفس هو الشيء الذى يشير إليه كل أحد بقوله (أنا) ، وكل أحد يعلم بالضرورة أنه إذا أشار إلى ذاته المخصوصة بقوله (أنا) كان ذلك المشار إليه واحداً غير متعدد ، فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون المشار إليه لكل أحد بقوله (أنا) وإن كان واحداً إلا أن ذلك الواحد يكون مركباً من أشياء كثيرة ؟ . قلنا : إنه لا حاجة لنا فى هذا المقام إلى دفع هذا السؤال ، بل نقول : المشار إليه بقول (أنا) معلوم بالضرورة أنه شيء واحد ، فإما أن ذلك الواحد هل هو واحد مركب من أشياء

كثيرة أو هو واحد في نفسه ، واحد في حقيقته ، فهذا لا حاجة إليه في هذا المقام .

أما المقام الثاني ، وهو مقام الاستدلال ، فالذى يدل على وحدة النفس وجوه :

* الحجة الأولى :

أن الغضب حالة نفسانية تحدث عند إرادة دفع المنافرة ، والشهوة حالة نفسانية تحدث عند طلب الملائم مشروطاً بالشعور بكون الشيء ملائماً أو منافراً .. فالقوة الغضبية التى هى قوة دافعة للمنافر إن لم يكن لها شعور بكونه منافراً امتنع انبعاثها لدفع ذلك المنافر على سبيل القصد والاختيار .. لأن القصد إلى الجذب تارة وإلى الدفع أخرى مشروط بالشعور بالشيء ، فالشيء المحكوم عليه بكونه دافعاً للمنافر على سبيل الاختيار لابد وأن يكون له شعور بكونه منافراً ، فالذى يغضب لابد وأن يكون هو بعينه مدركاً ، فثبت بهذا البرهان اليقيني مباينة حاصلة في ذوات متباينة .

* الحجة الثانية :

أثنا إذا افترضنا جوهرين مستقلين يكون كل واحد منهما مستقلاً بفعله الخاص ، امتنع أن يصير اشتغال أحدهما بفعله الخاص مانعاً للآخر من اشتغاله بفعله الخاص به .

وإذا ثبت هذا ، فنقول : لو كان محل الإدراك والفكر جوهرأ ، ومحل الغضب جوهرأ آخر ، ومحل الشهوة جوهرأ ثالثاً .. وجب أن لا يكون اشتغال القوة الغضبية بفعالها مانعاً للقوة الشهوانية من الاشتغال بفعالها ولا بالعكس ، لكن الثانى باطل ، فإن اشتغال

الإنسان بالشهوة وانصبابه إليها يمنعه من الاشتغال بالغضب وانصبابه إليه وبالعكس .. فعلمنا أن هذه الأمور الثلاثة ليست مبادئ مستقلة ، بل هى صفات مختلفة بجوهر واحد ، فلا جرم كان اشتغال ذلك الجوهر بأحد هذه الأفعال عائقاً له عن الاشتغال بالفعل الآخر .

* الحجة الثالثة :

أثنا إذا أدركنا أشياء ، فقد يكون الإدراك سبباً لحصول الشهوة ، وقد يصير سبباً لحصول الغضب .. فلو كان الجوهر المدرك مغايراً للذى يغضب والذى يشتهى ، فحين أدرك الجوهر المدرك لم يحصل عند الجوهر المشتى من ذلك الإدراك أثر ولا خبر ، فوجب أن لا يترتب على ذلك الإدراك لا حصول الشهوة ولا حصول الغضب ، وحيث حصل هذا الترتيب والاستلزام علمنا أن صاحب الإدراك بعينه هو صاحب الشهوة بعينها وصاحب الغضب بعينه .

* الحجة الرابعة :

أن حقيقة الحيوان أنه جسم ذو نفس حساسة متحركة بالإرادة ، فالنفس لا يمكنها أن تتحرك بالإرادة إلا عند حصول الداعى ، ولا معنى للداعى إلا الشعور بخير يرغب فى جذبه أو بشر يرغب فى دفعه .. وهذا يقتضى أن يكون المتحرك بالإرادة هو بعينه مدركاً للخير والشر ، والملذ والمؤذى ، والنافع والضار .. فثبت بما ذكرنا أن النفس الإنسانية شىء واحد ، وثبت أن ذلك الشىء هو المبصر ، والسامع ، والشام ، والذائق ، واللامس ، والمتخيل ، والمتفكر ، والمتذكر ، والمشتى ، والغاضب ، وهو الموصوف بجميع الإدراكات لكل المدركات ، وهو الموصوف بجميع الأفعال الاختيارية والحركات الإرادية .

— المقدمة الثانية : فى بيان أنه لما كانت النفس شيئاً واحداً ، وحب ألا تكون النفس فى هذا البدن ولا شيئاً من أجزائه .. فنقول :

أما بيان أنه متى كان الأمر كذلك امتنع كون النفس عبارة عن جملة هذا البدن ، وكذا القوة السامعة ، وكذا سائر القوى ، كالتخيل والتذكر والتفكر ، والعلم بأن هذه القوة غير سارية فى جملة أجزاء البدن علم بديهى .. بل هو من أقوى العلوم البديهية .

وأما بيان أنه يمتنع أن تكون النفس جزءاً من أجزاء هذا البدن ، فإننا نعلم بالضرورة أنه ليس فى البدن جزء واحد هو بعينه موصوف بالإبصار والسمع والفكر والذكر ، بل الذى يتبادر إلى الخاطر أن الإبصار مخصوص بالعين لا بسائر الأعضاء ، والسمع مخصوص بالأذن لا بسائر الأعضاء ، والصوت مخصوص بالخلق لا بسائر الأعضاء .. وكذلك القول فى سائر الإدراكات وسائر الأفعال . فإما أن يُقال : إنه حصل فى البدن جزء واحد موصوف بكل هذه الإدراكات وبكل هذه الأفعال ، فالعلم الضرورى حاصل بأنه ليس الأمر كذلك ..

فثبت بما ذكرنا أن النفس الإنسانية شىء واحد موصوف بجملة هذه الإدراكات وجملة هذه الأفعال ، وثبت بالبديهية أن جملة البدن ليست كذلك .

وثبت أيضاً أن شيئاً من أجزاء البدن ليس كذلك .. فحيث يحصل اليقين بأن النفس شىء مغاير لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه وهو المطلوب :

ولنقرر هنا البرهان بعبارة أخرى .. فنقول :

إنّا نعلم بالضرورة أنّا إذا أبصرنا شيئاً عرفناه ، وإذا عرفناه اشتهيته ، وإذا اشتهيته حركنا أبداننا إلى القرب منه ، فوجب القطع بأن الذى أبصر هو الذى عرف ، وأن الذى عرف هو الذى اشتهى ، وأن الذى اشتهى هو الذى حرّك إلى القرب منه .. فيلزم القطع بأن المبصر لذلك الشئ والعارف به والمشتهى والمتحرك إلى القرب منه شئ واحد .. إذ لو كان المبصر شيئاً ، والعارف شيئاً ثانياً ، والمشتهى شيئاً ثالثاً ، والمتحرك شيئاً رابعاً ، لكان الذى أبصر لم يعرف ، والذى عرف لم يشتهه ، والذى اشتهى لم يتحرك ، ومن المعلوم أن كون الشئ مبصراً لا يقتضى صيرورة شئ آخر عالماً بذلك الشئ .. وكذلك القول فى سائر المراتب .

وأيضاً فإنّا نعلم بالضرورة أن الرأى للمرئيات لما رآها فقد عرفها ، ولما عرفها فقد اشتهاها ، ولما اشتهاها طلبها وحرّك الأعضاء إلى القرب منها ، ونعلم أيضاً بالضرورة أن الموصوف بهذه الرؤية وبهذا العلم وبهذه الشهوة وبهذا التحرك هو لا غيره .

وأيضاً العقلاء قالوا : الحيوان لابد أن يكون حساساً متحركاً بالإرادة ، فإن لم يحس بشئ لم يشعر بكونه ملائماً أو بكونه منافراً .. وإذا لم يشعر بذلك امتنع كونه مريداً للجذب أو الدفع ، فثبت أن الشئ الذى يكون متحركاً بالإرادة فإنه بعينه يجب أن يكون حساساً.. فثبت أن المدرك لجميع المدركات يدرك بجميع أصناف الإدراكات .. وأن المباشر لجميع التحريكات الاختيارية شئ واحد أيضاً .. فلأنّنا إذا تكلمنا بكلام نقصد منه تفهيم الغير ، عقلنا معانى تلك الكلمات ، ثم لما عقلناها أردنا تعريف غيرنا تلك المعانى ، ولما حصلت هذه الإرادة فى قلوبنا حاولنا إدخال تلك الحروف والأصوات فى الوجود لتتوسّل

بها إلى تعريف غمرنا تلك المعاني

إذا ثبت هذا فنقول :

إن كان محل العلم والإرادة ومحل تلك الحروف والأصوات جسماً واحداً ، لزم أن يُقال : إن محل العلوم والإرادات هو الخنجرة واللهة^(١) واللسان .. ومعلوم أنه ليس كذلك .. وإن قلنا : محل العلوم والإرادات هو القلب .. لزم أيضاً أن يكون محل الصوت هو القلب .. وذلك أيضاً باطل بالضرورة .

وإن قلنا : محل الكلام هو الخنجرة واللهة واللسان ، ومحل العلوم والإرادات هو القلب ، ومحل القدرة هو الأعصاب والأوتار والعضلات ، كنا قد وزعنا هذه الأمور على هذه الأعضاء المختلفة لكنا أبطلنا ذلك .. وبيننا أن المدرك لجميع المدركات والحرك لجميع الأعضاء بكل أنواع التحريكات يجب أن يكون شيئاً واحداً .. فلم يبق إلا أن يُقال في الإدراك والقدرة على التحريك أنه شيء سوى هذا البدن وسوى أجزاء هذا البدن ، وأن هذه الأعضاء جارية مجرى الآلات والأدوات ، فكما أن الإنسان يعقل أفعالاً مختلفة بواسطة آلات مختلفة ، فكذلك النفس تبصر بالعين وتسمع بالأذن وتفكر بالدماغ وتعقل بالقلب ..

فهذه الأعضاء آلات النفس وأدوات لها ، والنفس جوهر مغاير لها مفارق عنها بالذات ، متعلق بها تعلق التصرف والتدبير .. وهذا البرهان برهان شريف يقيني في ثبوت هذا المطلوب .. والله أعلم .

— المقدمة الثالثة : لو كان الإنسان عبارة عن هذا الجسد لكان إما أن يقوم بكل واحد من أجزائه حياة وعلم وقدرة على حدة... وإما أن

(١) اللهة : اللحمة المشتركة على الخلق . أو الهنة المطبقة في أقصى سقف الفم .

يقوم بمجموع الأجزاء حياة وعلم وقدرة .. والقسمان باطلان ..
فبطل القول بكون الإنسان عبارة عن هذا الجسد .

وأما بطلان القسم الأول فلأنه يقتضى كون كل واحد من أجزاء
الجسد حياً عالماً قادراً على سبيل الاستقلال .. فوجب أن يكون
الإنسان الواحد حيواناً واحداً بل أحياء عالمين قادرين .. وحينئذ
لا يبقى فرق بين الإنسان الواحد وبين أشخاص كثيرين من الناس ،
وربط بعضهم ببعض بالتسلسل ، لكننا نعلم بالضرورة فساد هذا
لكلام لأنى أجد ذاتى ذاتاً واحدة لا حيوانات كثيرين .

وأيضاً فبتقدير أن يكون كل واحد من أجزاء هذا الجسد حيواناً
واحداً على حدة ، فحينئذ لا يكون لكل واحد منها خبر عن حال
صاحبه ، فلا يمتنع أن يريد هذا أن يتحرك إلى هذا الجانب ويريد الجزء
الآخر أن يتحرك إلى الجانب الآخر ، فحينئذ يقع التدافع بين أجزاء
بدن الإنسان الواحد كما يقع بين شخصين .. وفساد ذلك معلوم
بالبدئية .

وأما بطلان القسم الثانى ، فلأنه يقتضى قيام الصفة الواحدة بالحال
الكثيرة .. وذلك معلوم البطلان بالضرورة .. ولأنه لو جاز حلول
الصفة الواحدة فى الحال الكثيرة لم يبعد أيضاً حصول الجسم الواحد فى
الأحياء الكثيرة .. ولأن بتقدير أن تحصل الصفة الواحدة فى الحال
المتعددة فحينئذ يكون كل واحد من تلك الأجزاء حياً عاقلاً عالماً ،
فيتجرد الأمر إلى كون هذه الجثة الواحدة أناساً كثيرين . ولما ظهر
فساد القسمين ثبت أن الإنسان ليس هو هذه الجثة .

فإن قالوا : لم لا يجوز أن تقوم الحياة الواحدة بالجزء الواحد .. ثم
إن تلك الحياة تقتضى صيرورة جملة الأجزاء أحياء ، قلنا : هذا باطل ،

لأنه لا معنى للحياة إلا الحية ، ولا معنى للعلم إلى العالمية .. وبتقدير أن نساعد على أن الحياة معنى يوجب الحية والعلم معنى يوجب العالمية ، إلا أننا نقول : إن حصل في مجموع جثة مجموعة حياة واحدة وعالمية واحدة ، فقد حصلت الصفة الواحدة في المحال الكثيرة وهو محال .. وإن حصل في كل جزء وجثة حياة على حدة وعالمية على حدة عاد ما ذكرنا من كون الإنسان الواحد أناساً كثيرين وهو محال .

— المقدمة الرابعة : أنا لو تأملنا في أحوال النفس رأينا أحوالها بالضد من أحوال الجسم .. وذلك يدل على أن النفس ليست جسماً .. وتقرير هذه المناقاة من وجوه :

الأول : أن كل جسم حصلت فيه صورة فإنه لا يقبل صورة أخرى من جنس الصورة الأولى إلا بعد زوال الصورة الأولى زوالاً تاماً .. مثاله : أن الشمع إذا حصل في شكل التثليث امتنع أن يحصل فيه شكل التربيع والتدوير إلا بعد زوال الشكل الأول عنه .. نعم إننا وجدنا الحال في تصور النفس بصورة المعقولات بالضد من ذلك ، فإن النفس التي لم تقبل صورة عقلية ألبتة يبعد قبولها شيئاً من الصور العقلية ، فإذا قبلت صورة واحدة صار قبولها للصور الثانية أسهل .. ثم إن النفس لا تزال تقبل صورة بعد صورة من غير أن تضعف ألبتة ، بل كلما كان قبولها للصور أكثر صار قبولها للصور الآتية بعد ذلك أسهل وأسرع .. ولهذا السبب يزداد الإنسان فهماً وإدراكاً كلما ازداد تخرجاً وارتباطاً في العلوم ، فثبت أن قبول النفس للصور العقلية على خلاف قبول الجسم للصورة ، وذلك يوهم أن النفس ليست بجسم .

الثاني : أن المواظبة على الأفكار -الدقيقة لها أثر في النفس وأثر في البدن .. أما أثرها في النفس فهو تأثيرها في إخراج النفس من القوة إلى الفعل في التعقلات والإدراكات ، وكلما كانت الأفكار أكثر كان حصول هذه الأحوال أكمل وذلك غاية كمالها ونهاية شرفها وجلالتها .. وأما أثرها في البدن فهو أنها توجب استيلاء اليبس على البدن واستيلاء الذبول عليه .. وهذه الحالة لو استمرت لانتقلت إلى المالمخوليا^(١) والموت .. فثبت بما ذكرنا أن هذه الأفكار توجب حياة النفس وشرفها ، وتوجب نقصان البدن وموته .. فلو كانت النفس هي البدن لصار الشيء الواحد سبباً لكمالهِ ونقصانه معاً ولحياته وموته معاً .. وإنه محال .

الثالث : أننا إذا شاهدنا أنه ربما كان بدن الإنسان ضعيفاً نحيفاً ، فإذا لاح له نور من الأنوار القدسية وتحلى له سر من أسرار عالم الغيب حصل لذلك الإنسان جرأة عظيمة وسلطنة قوية .. ولم يعبأ بحضور أكابر السلاطين ولم يُقم لهم وزناً .. ولولا أن النفس شيء سوى البدن لما كان الأمر كذلك .

الرابع : أن أصحاب الرياضات والمجاهدات كلما أمعنوا في قهر القوى البدنية وتجويع الجسد قويت قواهم الروحانية وأشرقت أسرارهم بالمعارف الإلهية .. وكلما أمعن الإنسان في الأكل والشرب وقضاء الشهوة الجسدانية صار كالبهيمة وبقي محروماً عن آثار النطق والعقل والمعرفة ، ولولا أن النفس غير البدن لما كان الأمر كذلك .

(١) ذهاب العقل وفساده ؛ فهي مرض عقلي .

الخامس : أتا نرى أن النفس تفعل أفاعيلها بآلات بدنية ، فإنها تبصر بالعين ، وتسمع بالأذن ، وتأخذ باليد ، وتمشي بالرجل .. أما إذا آل الأمر إلى العقل والإدراك فإنها مستقلة بذاتها في هذا الفعل من غير إعانة شيء من الآلات ، ولذلك فإن الإنسان لا يمكنه أن يبصر شيئاً إذا أغمض عينيه وأن لا يسمع صوتاً إذا سدّ أذنيه .. كما لا يمكنه ألبيثة أن يزيل عن قلبه العلم بما كان عالماً به .. فعلمنا أن النفس غنية بذاتها في العلوم والمعارف عن شيء من الآلات البدنية .
فهذه الوجوه الخمسة أمارات قوية في أن النفس ليست بجسم ..
وفي المسألة الأولى كثير من دلائل المتقدمين .



ثانياً : الأدلة السمعية

المسألة السادسة : الدلائل السمعية في إثبات أن النفس ليست بجسم

* الحجة الأولى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾^(١) .. ومعلوم أن أحداً من العقلاء لا ينسى هذا الهيكل المشاهد ، فدل ذلك على أن النفس التي ينساها الإنسان عند فرط الجهل شيء آخر غير هذا البدن .

* الحجة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ أُخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾^(٢) . وهذا صريح أن النفس غير البدن .

* الحجة الثالثة :

أنه تعالى ذكر مراتب الخلقة الجسمانية فقال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾^(٣) .. ولا شك أن جميع هذه

(١) الحشر : آية ١٩ .. وفيه دليل على أن النفس الإنسانية شيء غير هذا الهيكل ، وغير هذا الجسد .. وقالوا : لا شك أن قوله : ﴿ أُخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ معناه : أخرجوا أنفسكم من أجسادكم .. وهذا يدل على أن النفس مغايرة للأجساد . أهـ . الفخر الرازي ٩٠/٧ .

(٢) الأنعام : آية ٩٣ .

(٣) المؤمنون : آية ١٤ .

المراتب اختلافات واقعة في الأحوال الجسمانية ، ثم إنه تعالى لما أراد أن يذكر نفخ الروح قال : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۖ ﴾ (١) .. وهذا تصريح بأن ما يتعلق بالروح جنس مغاير لما سبق ذكره من التغيرات الواقعة في الأحوال الجسمانية ، وذلك يدل على أن الروح شيء مغاير للبدن .. فإن قالوا : هذه الآية حجة عليكم لأنه تعالى قال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۖ ﴾ وكلمة من للتبعيض ، وهذا يدل على أن الإنسان بعض من أبعاد الطين ، قلنا : كلمة « مِنْ » أصلها لا ابتداء الغاية ، كقولك خرجت من البصرة إلى الكوفة .. فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۖ ﴾ يقتضى أن يكون ابتداء تخليق الإنسان حاصلاً من هذه السلالة ، ونحن نقول بموجبه لأنه تعالى يسوى المزاج أولاً ثم ينفخ فيه الروح ، فيكون ابتداء تخليقه من السلالة .

* الحجة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوْحِي ۖ ﴾ (٢) ميز تعالى بين البشرية وبين نفخ الروح .. فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاد والأعضاء وتعديل المزاج والأشباح ، فلما ميز نفخ الروح عن تسوية الأعضاء ثم أضاف الروح إلى نفسه بقوله : ﴿ مِنْ رُوْحِي ۖ ﴾ .. دل ذلك على أن جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد .

(١) المؤمنون : آية ١٤ . (٢) الحجر : آية ٢٩ .

* الحجة الخامسة :

قوله تعالى : ﴿ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها ﴾ (١) .. وهذه الآية صريحة في وجود شيء موصوف بالإدراك والتحريك حقاً ، لأن الإلهام عبارة عن الإدراك .. وأما الفجور والتقوى فهو فعل .. وهذه الآية صريحة في أن الإنسان شيء واحد وهو موصوف أيضاً بالإدراك والتحريك وموصوف أيضاً بفعل الفجور تارة وفعل التقوى تارة أخرى .. ومعلوم أن جملة البدن غير موصوف بهذين الوصفين .. فلا بد من إثبات جوهر آخر يكون موصوفاً بكل هذه الأمور .

* الحجة السادسة :

قوله تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ (٢) .. فهذا تصريح بأن الإنسان شيء واحد ، وذلك الشيء هو المبتلى بالتكاليف الإلهية والأمور الربانية ، وهو الموصوف بالسمع والبصر .. ومجموع البدن ليس كذلك وليس عضواً من أعضاء البدن كذلك .. فالنفس شيء مغاير لجملة البدن ومغاير لأجزاء البدن وهو موصوف بكل هذه الصفات .

واعلم أن الأحاديث الواردة في صفة الأرواح قبل تعلقها بالأجساد وبعد انفصالها من الأجساد كثيرة ، وكل ذلك يدل على أن النفس شيء غير هذا الجسد .. والعجب ممن يقرأ هذه الآيات الكثيرة ويروى هذه الأخبار الكثيرة ثم يقول : توفي رسول الله ﷺ وما كان يعرف الروح .. وهذا من العجائب .. والله أعلم .

(١) الشمس : آية ٧ .

(٢) الإنسان : آية ٢ .

دلالة الآية على صحة ما ذكر

المسألة السابعة : في دلالة الآية التي نحن في تفسيرها على صحة ما ذكرناه

إن الروح لو كان جسماً متنقلاً من حالة إلى حالة ومن صفة إلى صفة لكان مساوياً للبدن في كونه متولداً من أجسام اتصفت بصفات مخصوصة بعد أن كانت موصوفة بصفات أخرى .

فإذا سئل رسول الله ﷺ عن الروح وجب أن يبين أنه جسم كان كذا ثم صار كذا حتى صار روحاً مثل ما ذكر في كيفية تولد البدن ، أنه كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ، فلما لم يقل ذلك ، بل قال : إنه من أمر ربي ، بمعنى أنه لا يحدث ولا يدخل في الوجود إلا لأجل أن الله تعالى قال له : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ^(١) .. دل ذلك على أنه جوهر ليس من جنس الأجسام بل هو جوهر قدسي مجرد .. واعلم أن أكثر العارفين المكاشفين من أصحاب الرياضات وأرباب المكاشفات والمشاهدات مصرون على هذا القول جازمون بهذا المذهب . قال الواسطي : خلق الله الأرواح من بين الجمال والبهاء ، فلولا أنه سترها لسجد لها كل كافر .

(١) بعض ثمان آيات تضمنت هذا القول الكريم ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أولها على الترتيب سورة البقرة : آية ١١٧ ، وآخرها الآية رقم ٦٨ من سورة غافر .

أدلة من قال بأن الروح جسد .. والرد عليهم .. وتفنيدهم حججهم

واحتج المنكرون بوجوه :

• الأول : لو كانت مساوية لذات الله في كونه ليس بجسم ولا عرض لكانت مساوية له في تمام الماهية وذلك محال .

• الثاني : قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ أَى شَىءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نَظْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّيْلَ يَسَّرَهُ . ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ (١) . وهذا تصريح بأن الإنسان شىء مخلوق من النطفة ، وأنه يموت ويدخل القبر ، ثم إنه تعالى يخرج من القبر .. ولو لم يكن الإنسان عبارة عن هذه الجثة لم تكن الأحوال المذكورة في هذه الآية صحيحة .

• الثالث : قوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَرْزُقُونَ فَرْحِينَ ﴾ (٢) .. وهذا يدل على أن الروح جسم لأن الإرزاق والفرح من صفات الأجسام .

* الرد عليهم ودحض حججهم :

• الجواب عن الأول : أن المساواة في أنه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز مساواة في صفة سلبية .. والمساواة في الصفة السلبية لا توجب المماثلة .

(١) عبس : آية ١٦ ، ٢٢ .

(٢) ١ نهاية الآية رقم ١٦٩ وبداية الآية ١٧٠ من سورة آل عمران .

واعلم أن جماعة من الجهال يظنون أنه لما كان الروح موجوداً ليس
بمُتَحَيِّزٍ ولا حال في المتحيز وجب أن يكون مماثلاً للإله أو جزءاً
لِلإله .. وذلك جهل فاحش وغلط قبيح .. وتحقيقه ما ذكرناه من أن
المساواة في السلوب لو أوجبت المماثلة لوجب القول باستواء كل
المختلفات ، وأن كل ما هيتين مختلفتين فلا بد أن يشتركا في سلب كل
ما عدهما .. فلتكن هذه الدقيقة معلومة فإنها مَعْلُطَةٌ عظيمة للجهال .

• الجواب عن الثاني : والجواب عن الثاني أنه لما كان الإنسان في
العرف والظاهر عبارة عن هذه الجثة أطلق عليه اسم الإنسان في
العرف .

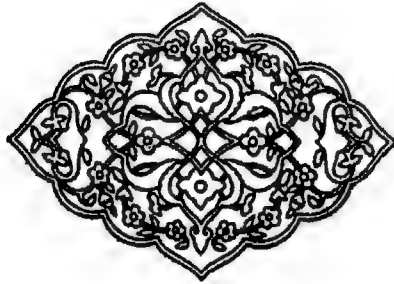
• الجواب عن الثالث : والجواب عن الثالث أن الرزق المذكور في
الآية محمول على ما يقوى حالهم ويكمل كمالهم ، وهو معرفة الله
ومحبته .. بل نقول هذا من أدلّ الدلائل على صحة قولنا ، لأن أبدانهم
قد بليت تحت التراب ، والله تعالى يقول إن أرواحهم تأوى إلى
قناديل معلقة تحت العرش .. وهذا يدل على أن الروح غير البدن .
وليكن هذا آخر كلامنا في هذا الباب .

أما قوله تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .. فقد ذكر
المفسرون أن النبي ﷺ لما قال لهم ذلك قالوا : نحن مختصون بهذا
الخطاب أم أنت معنا ؟

فقال ﷺ : « بل نحن وأنتم لم تؤت من العلم إلا قليلاً » ..
فقالوا : ما أعجب شأنك يا محمد !! ساعة تقول : ﴿ ومن يؤت
الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ (١) .. وساعة تقول هذا !! فنزل قوله

(١) البقرة : آية ٢٦٩ .

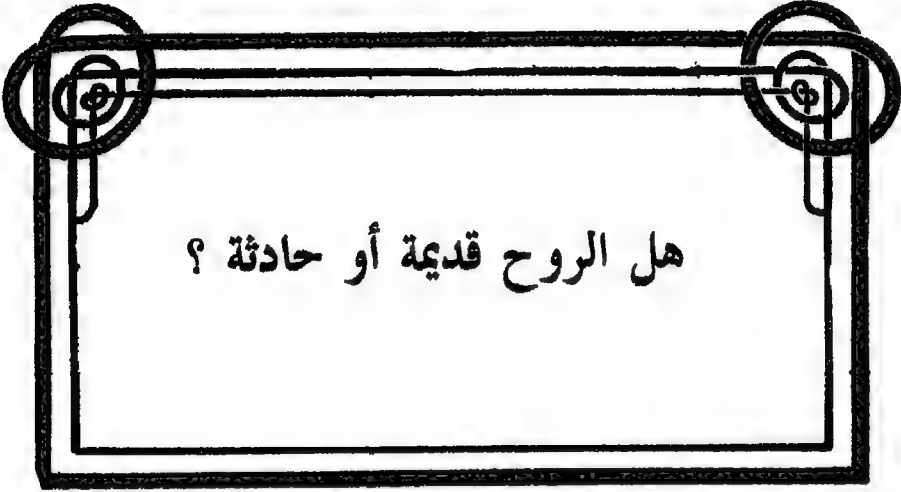
تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾^(١) إلى آخره ..
وما ذكروه ليس بلازم ، لأن الشيء قد يكون قليلاً بالنسبة إلى شيء
كثيراً بالنسبة إلى شيء آخر .. فالعلوم الحاصلة عند الناس قليلة جداً
بالنسبة إلى علم الله وبالنسبة إلى حقائق الأشياء ، ولكنها كثيرة بالنسبة
إلى الشهوات الحسمانية واللذات الجسدانية .



(١) لقمان : آية ٢٧ .



الفصل الثاني



هل الروح قديمة أو حادثة ؟

يأتيها النفس المطمئنة*

اعلم أن الله تعالى ذكر مطلق النفس في القرآن فقال : ﴿ ونفس وما سواها ﴾^(١) ، وقال : ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾^(٢) ، وقال : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾^(٣) .. وتارة وصفها بكونها أماراة بالسوء ، فقال : ﴿ إن النفس لأماراة بالسوء ﴾^(٤) ، وتارة بكونها لَوامة فقال : ﴿ بالنفس اللوامة ﴾^(٥) وتارة بكونها مطمئنة كما في هذه الآية .

واعلم أن نفس ذاتك وحقيقتك وهي التي تشير إليها بقولك (أنا) حين تحب عن نفسك بقولك : فعلت ، ورأيت ، وسمعت ، وغضبت ، واشتهيت ، وتخيَّلت ، وتذكرت ، إلا أن المشار إليه بهذه الإشارة ليس هو هذه البنية لوجهين :

الأول : أن المشار إليه بقولك (أنا) قد يكون معلوماً حال ما تكون هذه البنية المخصوصة غير معلومة .. والمعلوم غير ما هو غير معلوم .

الثاني : أن هذه البنية متبدلة الأجزاء ، والمشار إليه بقولك (أنا) غير متبدل .. فإني أعلم بالضرورة أني أنا الذي كنت موجوداً قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، والمتبدل غير ما هو غير متبدل .. فإذا ليست النفس عبارة عن هذه البنية .

(٣) انظر تفسير هذه الآية من سورة الفجر رقم ٢٧ ، المجلد السادس عشر ، ص ١٧٨ .

(١) الشمس : آية ٧ .

(٢) المائدة : آية ١١٦ .

(٣) السجدة : آية ١٧ .

(٤) يوسف : آية ٥٣ .

(٥) القيامة : آية ٢ .

وتقول : قال قوم : إن النفس ليست بجسم لأننا نعقل المشار إليه بقول (أنا) حال ما أكون غافلاً عن الجسم الذى حقيقته المختص بالحيز الذاهب فى الطول والعرض والعمق .. والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم .

وقال آخرون : بل هو جوهر جسمانى لطيف صافٍ بعيد عن مشابهة الأجرام العنصرية ، نورانى سماوى يخالف بالماهية لهذه الأجسام السفلية .. فإذا صارت مشابهة لهذا البدن الكثيف صار البدن حياً ، وإن فارقه صار البدن ميتاً .

• هل النفوس أزلية ؟

من القدماء من زعم أن النفوس أزلية .. واحتجوا بهذه الآية وهى قوله تعالى : ﴿ ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ .. فإن هذا إنما يُقال لما كان موجوداً قبل هذا البدن .

واعلم أن هذا الكلام يتفرع على أن هذا الخطاب متى يوجد ؟ .. وفيه وجهان :

الأول : أنه إنما يوجد عند الموت .. وههنا تقوى حجة القائلين بتقدم الأرواح على الأجساد .. إلا أنه لا يلزم من تقدمها عليه قدمها .

الثانى : أنه إنما يوجد عند البعث والقيامة .. والمعنى : ارجعى إلى ثواب ربك ، فادخلى فى عبادى : أى ادخلى فى الحسد الذى خرجت منه .

﴿ فادخلى في عبادى ﴾ :

أى انضممى إلى عبادى المقربين .. وهذه حالة شريفة ، وذلك لأن الأرواح الشريفة القدسية تكون كالمرايا المصقولة .. فإذا انضم بعضها إلى البعض حصلت فيما بينها حالة شبيهة بالحالة الحاصلة عند تقابل المرايا المصقولة من انعكاس الأشعة من بعضها على بعض ، فيظهر فى كل واحد منها كل ما ظهر فى كلها .. وبالجمله فيكون ذلك الانضمام سبباً لتكامل تلك السعادات ، وتعاضم تلك الدرجات الروحانية .. وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ وأما إن كان من أصحاب اليمين ، فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ (١) .. وذلك هو السعادة الروحانية .

ثم قال : ﴿ وادخلى جنتى ﴾ ، وهذا إشارة إلى السعادة الجسمانية .. ولما كانت الجنة الروحانية غير متراخية عند الموت فى حق السعداء ، لا جرم قال : ﴿ فادخلى فى عبادى ﴾ فذكر بقاء التعقيب .. ولما كانت الجنة الجسمانية لا يحصل الفوز بها إلا بعد قيام القيامة الكبرى ، لا جرم قال : ﴿ وادخلى جنتى ﴾ فذكره بالواو لا الفاء .. والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) الواقعة : آية ٩٠ — ٩١

الفصل الثالث

هل تبقى الأرواح بعد موت الأجسام
أو تفنى ؟

وما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها ؟

﴿ ... بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾

في قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (١) .

يقول الإمام :

اعلم أن ظاهر الآية يدل على كون هؤلاء المقتولين أحياء .. فإما أن يكون المراد منه حقيقة أو مجازاً .. فإن كان المراد منه هو الحقيقة ، فإما أن يكون المراد أنهم سيصيرون في الآخرة أحياء ، أو المراد أنهم أحياء في الحال .. وبتقدير أن يكون هذا هو المراد ، فإما أن يكون المراد إثبات الحياة الروحانية أو إثبات الحياة الجسمية ، فهذا ضبط الوجوه التي يمكن ذكرها في هذه الآية :

• الاحتمال الأول : أنهم سيصيرون في الآخرة أحياء :

وقد ذهب إليه جماعة من متكلمي المعتزلة ، منهم أبو القاسم الكعبي قال : وذلك لأن المنافقين الذين حكى الله عنهم ما حكى كانوا يقولون : أصحاب محمد ﷺ يعرضون أنفسهم للقتل فيقتلون ويخسرون الحياة ولا يصلون إلى خير ، وإنما كانوا يقولون ذلك لحدهم البعث والميعاد .. فكذبهم الله تعالى وبيّن بهذه الآية أنهم يبعثون ويرزقون ويوصل إليهم أنواع الفرح والسرور والبشارة .

• بطلان قول المعتزلة :

واعلم أن هذا القول عندنا باطل .. ويدل عليه وجوه :

(١) آل عمران : آية ١٦٩ - ١٧٠ .

* **الحجة الأولى :** أن قوله ﴿ **بل أحياء** ﴾ ظاهر يدل على كونهم أحياء عند نزول الآية ، فحمله على أنهم سيصبرون أحياء بعد ذلك عدول عن الظاهر .

* **الحجة الثانية :** أنه لاشك أن جانب الرحمة والفضل والإحسان أرجح من جانب العذاب والعقوبة .. ثم إنه تعالى ذكر في أهل العذاب أنه أحياءهم قبل القيامة لأجل التعذيب ، فإنه تعالى قال : ﴿ **أغرقوا فادخلوا نارا** ﴾ (١) ، والفاء للتعقيب . والتعذيب مشروط بالحياة .. وأيضاً قال تعالى : ﴿ **النار يعرضون عليها غدواً وعشياً** ﴾ (٢) . وإذا جعل الله أهل العذاب أحياء قبل قيام القيامة لأجل التعذيب ، فلأن يجعل أهل الثواب أحياء قبل القيامة لأجل الإحسان والإثابة كان ذلك أولى .

* **الحجة الثالثة :** أنه لو أراد أنه سيجعلهم أحياء عند البعث في الجنة لما قال للرسول ﷺ : ﴿ **ولا تحسبن** ﴾ مع علمه بأن جميع المؤمنين كذلك .

أما إذا حملناه على ثواب القبر حسن قوله : ﴿ **ولا تحسبن** ﴾ لأنه ﷺ لعلمه ما كان يعلم أنه تعالى يشرف المطيعين والمخلصين بهذا التشريف ، وهو أنه يخيمهم قبل قيام القيامة لأجل إيصال الثواب إليهم .

فإن قيل : إنه ﷺ وإن كان عالماً بأنهم سيصبرون أحياء عند ربهم عند البعث ولكنه غير عالم بأنهم من أهل الجنة ، فجاز أن يبشره الله بأنهم سيصبرون أحياء ويصلون إلى الثواب والسرور .

قلنا : قوله : ﴿ **ولا تحسبن** ﴾ إنما يتناول الموت لأنه قال : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا** ﴾ .. فالذى يزيل هذا

(١) نوح : آية ٢٥ .

(٢) غافر : آية ٤٦ .

الحسبان هو كونهم أحياء في الحال ، لأنه لا حسبان هناك في صيرورتهم أحياء يوم القيامة ، وقوله : ﴿ يرزقون فرحين ﴾ فهو خبر مبتدأ ولا تعلق له بذلك الحسان ، فزال هذا السؤال .
* **الحجة الرابعة :** قوله تعالى ﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ والقوم الذين لم يلحقوا بهم لابد وأن يكونوا في الدنيا .. فاستبشارهم بمن يكون في الدنيا لابد وأن يكون قبل القيامة .. والاستبشار لابد وأن يكون مع الحياة .. فدل هذا على كونهم أحياء قبل يوم القيامة .

* **الحجة الخامسة :** ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال في صفة الشهداء : « أن أرواحهم في أجواف طير خضر ، وأنها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتسرح حيث شاءت ، وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش ، فلما رأوا طيب مسكنهم ومطعمهم ومشربهم قالوا : ياليت قومنا يعلمون ما نحن فيه من النعيم وما صنع الله بنا كي يرغبوا في الجهاد ، فقال الله تعالى : أنا مخبر عنكم ومبلغ إخوانكم ، ففرحوا بذلك واستبشروا .. فأنزل الله تعالى هذه الآية » (١) .

وسئل ابن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية فقال : سألنا عنها ، فقيل لنا : إن الشهداء على نهر بباب الجنة في قبة خضراء ، وفي رواية : في روضة خضراء .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أبشرك أن أباك حيث أصيب بأحد أحياء الله ثم قال : ما تريد يا عبد الله بن عمرو أن أفعل بك ؟ فقال : يارب أحب أن

(١) أخرجه الترمذى نحوه في كتاب التفسير من حديث عبد الله بن مسعود ، ومسلم في كتاب الإمارة حديث رقم ١٢١ ، وابن ماجه في كتاب الجهاد وحديث رقم ٢٨٠١ . وأحمد في مسنده ٢٦٦/١ من حديث عبد الله بن عباس .

تردني إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى»^(١) .. والروايات في هذا الباب كأنها بلغت حد التواتر ، فكيف يمكن إنكارها ١١٩

• الاحتمال الثاني : أن الشهداء سيصيرون أحياء في الحال :

وأما الوجه الثاني من الوجوه المحتملة في هذه الآية هو أن المراد أن الشهداء أحياء في الحال .. والقائلون بهذا القول منهم من أثبت هذه الحياة للروح ، ومنهم من أثبتها للبدن . وقبل الخوض في هذا الباب يجب تقديم مقدمة :

وهي أن الإنسان ليس عبارة عن مجموع هذه البنية .. ويدل عليه أمران :

أحدهما : أن أجزاء هذه البنية في الذوبان والانحلال والتبدل .. والإنسان المخصوص شيء باقٍ من أول عمره إلى آخره .. والباقي مغاير للمتبدل .. والذي يؤكد ما قلناه : أنه تارة يصير سمياً وأخرى هزياً ، وأنه يكون في أول الأمر صغير الجثة ثم إنه يكبر وينمو .. ولاشك أن كل إنسان يجد من نفسه أنه شيء واحد من أول عمره إلى آخره ، فصح ما قلناه .

الثاني : أن الإنسان قد يكون عالماً بنفسه حال ما يكون غافلاً عن جميع أعضائه وأجزائه .. والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم ..

فثبت بهذين الوجهين أنه شيء مغاير لهذا البدن المحسوس .

ثم بعد ذلك يحتمل أن يكون جسماً مخصوصاً سارياً في هذه الجثة سريان النار في الفحم ، والدهن في السمنسم ، وماء الورد في الورد ..

(١) أخرجه بنحوه الترمذی فی کتاب التفسیر ، وابن ماجه فی کتاب الجهاد حديثه رقم ٢٨٠٠ .

ويحتمل أن يكون جوهرًا قائمًا بنفسه ليس بجسم ولا حال في الجسم .
وعلى كلا المذهبين فإنه لا يبعد أنه لما مات البدن انفصل ذلك
الشيء خياً ، وإن قلنا : إنه أماته الله إلا أنه تعالى يعيد الحياة إليه ..
وعلى هذا التقدير تزول الشبهات بالكلية عن ثواب القبر كما في هذه
الآية ، وعن عذاب القبر كما في قوله : ﴿ أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾ .
فثبت بما ذكرناه أنه لا امتناع في ذلك ، فظاهر الآية دال عليه ،
فوجب المصير إليه .

• الدليل على ما ذكرناه :

والذى يؤكد ما ذكرناه : القرآن والحديث والعقل :

• أما القرآن : فأيات .. إحداها : ﴿ يأتيتها النفس المطمئنة إرجعي
إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادى . وادخلي
جنتى ﴾ (١) .. ولاشك أن المراد من قوله : ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾
الموت .. ثم قال : ﴿ فادخلي في عبادى ﴾ وفاء التعقيب تدل على أن
حصول هذه الحالة يكون عقب الموت .. وهذا يدل على ما ذكرناه .
وثانيها : ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم
لا يفرطون ﴾ (٢) .. وهذا عبارة عن موت البدن .

ثم قال : ﴿ ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ (٣) .. فقوله :
﴿ رُدُّوا ﴾ ضمير عنه .. وإنما هو بحياته وذاته المخصوصة ، فدل على
أن ذلك باقٍ بعد موت البدن .

(١) الفجر : الآيات من ٢٧ - ٣٠ .

(٢) الأنعام : آية ٦١ .

(٣) بعض الآية رقم ٦٢ من سورة الأنعام .

وثالثها : قوله : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ . فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾^(١) وفاء التعقيب تدل على أن هذا الروح والريحان والجنة حاصل عقيب الموت .

* وأما الخبر : فقوله ﷺ : « من مات فقد قامت قيامته »^(٢) .. والفاء فاء التعقيب تدل على أن قيامة كل أحد حاصلة بعد موته .. وأما القيامة الكبرى فهي حاصلة في الوقت المعلوم عند الله .

وأيضاً قوله ﷺ : « القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار »^(٣) . وأيضاً روى أنه ﷺ يوم بدر كان ينادى المقتولين ويقول : « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ » ف قيل له : يا رسول الله ، إنهم أموات ، فكيف تناديهم ؟ فقال ﷺ : « إنهم أسمع منكم »^(٤) أو لفظاً هذا معناه .

وأيضاً قال ﷺ : « أولياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار »^(٥) وكل ذلك يدل على أن النفوس باقية بعد موت الجسد .

* وأما المعقول : فمن وجوه :

الأول : وهو أن وقت النوم يضعف البدن .. وضعفه لا يقتضى ضعف النفس .. بل النفس تقوى وقت النوم فتشاهد الأحوال وتطلع

(١) الواقعة : الآيتان ٨٨ - ٨٩ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز باب « ما جاء في عذاب القبر » بلفظ « بأنتم بأسمع منهم » .

وأحمد في مسنده ٢٧٦/٦ .

(٥) سبق تخريجه .

على المغييات .. فإذا كان ضعف البدن لا يوجب ضعف النفس ، فهذا يقوى الظن في أن موت البدن لا يستعقب موت النفس .

الثاني : وهو أن كثرة الأفكار سبب لجفاف الدماغ ، وجفافه يؤدي إلى الموت .. وهذه الأفكار سبب لا ستكمال النفس بالمعارف الإلهية ، وهو غاية كمال النفس .. فما هو سبب في كمال النفس فهو سبب لنقصان البدن ، وهذا يقوى الظن في أن النفس لا تموت بموت البدن .

الثالث : أن أحوال النفس على ضد أحوال البدن .. وذلك لأن النفس إنما تفرح وتبتهج بالمعارف الإلهية .. والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ^(١) .. وقال عليه السلام : « أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني » ^(٢) .. ولا شك أن ذلك الطعام والشراب ليس إلا عبارة عن المعرفة والمحبة والاستنارة بأتوار عالم الغيب ، وأيضاً فإننا نرى أن الإنسان إذا غلب عليه الاستبشار بخدمة سلطان ، أو بالفوز بمنصب ، أو بالوصول إلى معشوقه ، قد ينسى الطعام والشراب ، بل يصير بحيث إذا دُعِيَ إلى الأكل والشرب لوجد من قلبه نفرة شديدة منه .. والعارفون المتوغلون في معرفة الله تعالى قد يجدون من أنفسهم أنهم إذا لاح لهم شيء من تلك الأنوار وانكشف لهم شيء من تلك الأسرار ، لم يحسُّوا البتَّةَ بالجوع والعطش .. وبالجمله فالسعادة النفسانية كالمضادة للسعادة الجسمانية .. وكل ذلك يغلب على الظن أن النفس مستقلة بذاتها ولا تعلق لها بالبدن .. وإذا كان كذلك وجب ألا تموت النفس بموت البدن .. ولتكن هذه الإقناعات كافية في هذا المقام .

(١) الرعد : آية ٢٨ .

(٢) رواه الشيخان بلفظ « إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني » انظر مسلم ، كتاب الصيام ، باب « النهي عن الوصال في الصوم » والبخاري ، كتاب الصوم ، باب : « التشكيل لمن أكثر الوصال » .

واعلم أنه متى تقررت هذه القاعدة زالت الإشكالات والشبهات
عن كل ما ورد في القرآن من ثواب القبر وعذابه .. وإذا عرفت هذه
القاعدة فنقول :

قال بعض المفسرين : أرواح الشهداء أحياء وهى تركع وتسجد
كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة .. والدليل عليه ما روى أن النبي
ﷺ قال : « إذا نام العبد فى سجوده باهى الله تعالى به ملائكته .. »
ويقول : انظروا إلى عبدى روحه عندى وجسده فى خدمتى » .

واعلم أن الآية دالة على ذلك وهى قوله ﴿ أحياء عند ربهم ﴾ ..
ولفظ (عند) فكما أنه مذكور ههنا فكذا فى صفة الملائكة مذكور
وهو قوله : ﴿ ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ﴾ (١) .. فإذا
فهمت السعادة الحاصلة للملائكة بكونهم عند الله ، فهمت السعادة
الحاصلة للشهداء بكونهم عند الله .. وهذه الكلمات تفتح على العقل
أبواب معارف الآخرة .

• الاحتمال الثالث : إثبات الحياة للأجساد :

وأما الوجه الثالث فى تفسير هذه الآية عند من يثبت هذه الحياة
لأجساد .. والقائلون بهذا القول اختلفوا : فقال بعضهم : إنه تعالى
بصعد أجساد هؤلاء الشهداء إلى السموات وإلى قناديل تحت العرش ،
ويوصل أنواع السعادة والكرامات إليها . ومنهم من قال : يتركها فى
الأرض وجيب ويوصل هذه السعادات إليها ..

(١) الأنبياء : آية ١٩ .

* بيان ضعف هذا الاحتمال :

ومن الناس من طعن فيه ، وقال : إنا نرى أجساد هؤلاء قد تأكلها السباع .. فإما أن يُقال : إن الله تعالى يحييها حال كونها في بطون هذه السباع ويوصل الثواب إليها .. أو يُقال : إن تلك الأجزاء بعد انفصالها من بطون السباع يركبها الله تعالى ، ويؤلفها ويرد الحياة إليها ويوصل الثواب إليها .. وكل ذلك مستبعد ، ولأننا قد نرى الميت المقتول باقياً أياماً إلى أن تتفسخ أعضاؤه وينفصل القيح والصدید .. فإن جَوَزنا كونها حيّة متنعمة عاقلة عارفة لزم القول بالسفسطة .

• الاحتمال الرابع : القول بالمجاز :

أما الاحتمال الرابع في تفسير هذه الآية أن نقول : ليس المراد من كونهم أحياء حصول الحياة فيهم .. بل المراد بعض المجازات .. وبيانه من وجوه :

الأول : قال الأصم البلخي : إن الميت إذا كان عظيم المنزلة في الدين ، وكانت عاقبته يوم القيامة المبهجة والسعادة والكرامة ، صح أن يُقال : إنه حي وليس بميت .. كما يُقال في الجاهل الذي لا ينفع نفسه ولا ينتفع به أحد : إنه ميت وليس بحي .. وكما يُقال للبلید : إنه حمار ، وللمؤذى : إنه سبع .

وروى أن عبد الملك بن مروان لما رأى الزهري وعلم فقهه وتحقيقه قال له : ما مات من خلف مثلك .

وبالجملة فلا شك أن الإنسان إذا مات وخلف ثناء جميلاً حسناً ، فإنه يُقال على سبيل المجاز : إنه ما مات بل هو حي .

الثاني : قال بعضهم : مجاز هذه الحياة أن أجسادهم باقية في

قبورهم ، وأنها لا تبلى تحت الأرض آلبنة .. واحتج هؤلاء بما روى أنه لما أراد معاوية أن يجرى العين على قبور الشهداء ، أمر بأن يُنادى : من كان له قتيل فليخرجه من هذا الموضع .. قال جابر : فخرجنا إليهم فأخرجناهم رطاب الأبدان ، فأصابنا المسحاة أصبع رجل منهم فقطرت دماً^(١)

والثالث : أن المراد بكونهم أحياء أنهم لا يُغسلون كما تُغسل الأموات .. فهذا مجموع ما قيل في هذه الآية والله أعلم بأسرار المخلوقات .

(١) وقريب منه ، ما رواه مالك في الموطأ كتاب الجهاد حديث رقم ٤٩ ، عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة ، أنه بلغه أن عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو الأنصاريين ، ثم السلميين ، كانا قد حُفِر السيل قبرهما ، وكان قبرهما مما بلى السيل ، وكانا في قبر واحد ، وهما من استشهد يوم أحد ، فحُفِر عنهما ليغبرا من مكانهما ، فوجدنا لم يتغيرا ، كأنهما ماتا بالأمس . وكان أحدهما قد جرح ، فوضع يده على جرحه ، فدفن وهو كذلك فأميطت يده عن جرحه ، ثم أرسلت ، فرجعت كما كانت ، وكان بين أحيد وبين يوم حُفِر عنهما ست وأربعون سنة .

﴿ النار يُعرضون عليها غدواً وعشياً ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدَّ العذاب ﴾

(غاف : آية ٤٦) .

احتج أصحابنا بهذه الآية على إثبات عذاب القبر .. قالوا : الآية تقتضى عرض النار عليهم غدواً وعشياً ، وليس المراد منه يوم القيامة ، لأنه قال : ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدَّ العذاب ﴾ وليس المراد منه أيضاً الدنيا لأن عرض النار عليهم غدواً وعشياً ما كان حاصلاً في الدنيا .. فثبت أن هذا العرض إنما حصل بعد الموت وقبل القيامة ، وذلك يدل على إثبات عذاب القبر في حق هؤلاء ، وإذا ثبت في حقهم ثبت في حق غيرهم ، لأنه لا قائل بالفرق .

مَنْ قال : إن المراد من ذلك الترغيب والترهيب فقط :

فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد من عرض النار عليهم غدواً وعشياً عرض النصائح عليهم في الدنيا ؟ لأن أهل الدين إذا ذكروا لهم الترغيب والترهيب وخوَّفوهم بعذاب الله فقد عرضوا عليهم النار ، ثم نقول في الآية ما يمنع من حمله على عذاب القبر وبيانه من وجهين :

الأول : أن ذلك العذاب يجب أن يكون دائماً غير منقطع ، وقوله : ﴿ يُعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ يقتضى أن لا يحصل ذلك العذاب إلا في هذين الوقتين ، فثبت أن هذا لا يمكن حمله على عذاب القبر .

الثاني : أن الغدوة والعشية إنما يحصلان في الدنيا ، أما في القبر

فلا وجود لهما .. فثبت بهذين الوجهين أنه لا يمكن حمل هذه الآية على عذاب القبر .

إبطال هذا الرأي والرد عليه :

والجواب على السؤال الأول : أن في الدنيا عرض عليهم كلمات تذكرهم أمر النار ، لا أنه يعرض عليهم نفس النار .. فعلى قولهم يصير معنى الآية الكلمات المذكورة لأمر النار كانت تعرض عليهم ، وذلك يفضى إلى ترك ظاهر اللفظ والعدول إلى المجاز .

أما قوله : الآية تدل على حصول العذاب في هذين الوقتين وذلك لا يجوز ، قلنا : لم لا يجوز أن يكتفى في القبر بإيصال العذاب إليه في هذين الوقتين ، ثم عند قيام القيامة يُلقى في النار فيدوم عذابه بعد ذلك ؟ .. وأيضاً لا يمتنع أن يكون ذكر الغدوة والعشية كناية عن الدوام ، كقوله : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً ﴾^(١) .

أما قوله إنه ليس في القبر والقيامة غدوة وعشيّاً ، قلنا : لم لا يجوز أن يُقال إن عند حصول هذين الوقتين لأهل الدنيا يعرض عليهم العذاب ؟!! .. والله أعلم .



(١) مريم : آية ٦٢ .

﴿ أَغْرَقُوا فَأَدْخِلُوا نَاراً ﴾

(نوح : آية ٢٥)

تمسك أصحابنا في إثبات عذاب القبر بقوله : ﴿ أَغْرَقُوا فَأَدْخِلُوا نَاراً ﴾ .. وذلك من وجهين :

الأول : أن الفاء في قوله : ﴿ فَأَدْخِلُوا نَاراً ﴾ تدل على أنه حصلت تلك الحالة عقيب الإغراق ، فلا يمكن حملها على عذاب الآخرة ، وإلا بطلت دلالة الفاء .

الثاني : أنه قال : ﴿ فَأَدْخِلُوا ﴾ على سبيل الإخبار عن الماضي ، وهذا إنما يصدق لو وقع ذلك .

قال مقاتل والكلبي : معناه أنهم سيدخلون في الآخرة ناراً ، ثم عبر عن المستقبل بلفظ الماضي لصحة كونه وصدق الوعد به كقوله : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ (١) ﴿ وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ (٢) .

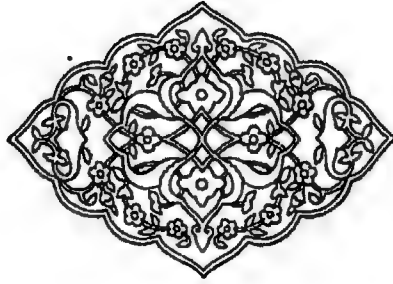
واعلم أن الذي قالوه ترك للظاهر من غير دليل .. فإن قيل إنما تركنا هذا الظاهر لدليل ، وهو أن من مات في الماء ، فإنما نشاهده هناك ، فكيف يمكن أن يُقال إنهم في تلك الساعة أُدْخِلُوا نَاراً ؟

والجواب : هذا الإشكال إنما جاء لاعتقاد أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل ، وهذا خطأ لما بيننا أن هذا الإنسان هو الذي كان موجوداً

(١) الأعراف : آية : ٥٠ .

(٢) الأعراف : آية : ٤٤ .

من أول عمره ، مع أنه كان صغير الجثة في أول عمره .. ثم إن أجزاءه دائماً في التحلل والذوبان ، ومعلوم أن الباقي غير المتبدل .. فهذا الإنسان عبارة عن ذلك الشيء الذى هو باقٍ من أول عمره إلى الآن ، فلم لا يجوز أن يُقال إنه وإن بقيت هذه الجثة في الماء إلا أن الله تعالى نقل تلك الأجزاء الأصلية الباقية التى كان الإنسان المعين عبارة عنها إلى النار والعذاب !!؟



مع الإمام الألوسى
صاحب روح المعانى فى تفسير
القرآن والسبع المثانى

مرجعنا في الدراسة التي نقدمها لك هو :

روح المعالي في تفسير القرآن ، والسبع المثاني

ومؤلفه هو : خاتمة المحققين ، وعمدة المدققين ، وإمام المفسرين ،
أبو الشناء : شهاب الدين : السيد الإمام : محمود بن عبد الله
الآلوسي^(١) البغدادى ، الحنفى^(٢) مفتى بغداد ، وعالمها في القرن
الثالث عشر الهجرى .

ولد سنة سبع عشرة ومائتين بعد الألف من الهجرة ، في جانب
الكرخ من بغداد .

نبغ في العلوم من صغره ، وأخذ عن كثير من فحول علماء عصره
منهم والده ، والشيخ خالد النقشبندى ، واشتغل بالتدريس ،
والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة ، وقد تتلمذ عليه كثيرون ، وتخرج
على يديه بعض العلماء الفضلاء من بلاد مختلفة ، ولما تولى الإفتاء شرع
يدرس كل العلوم في داره ، بجوار جامع الشيخ عبد الله العاقولى
بالرصافة ، وقد ساعده على ذلك : نبوغه في علوم شتى ، وجمع إلى
العلم النقلى ، والعقلى الأدب وفنونه ، فمن ثم عرف بجزالة التعبير ،
وسلاسة الأسلوب ، وحسن التصرف في القول ، وبروحه اللطيفة
الفكهة ، ومن تعبيراته اللطيفة التي لا تخلو من الفكاهة ، تسميته
للحروف الزائدة بأنها : « سيف خطيب » ، وعن النكات البلاغية
بأنها : « كالوردة » ، إن دعكتها أزلت مافيه من رائحة وجمال .

(١) نسبة إلى « آلوس » حزيمة في نهر الفرات بين بغداد والشام ، كانت موطن أهله وأجداده .
(٢) لست مع الذين يقولون : إنه كان شافعيًا ويقلد أبا حنيفة في كثير من المسائل ، فكتابه التفسير
طافح بقوله : وعندنا .. ثم يسوق مذهب الحنفية .

ولم يترك لنا من المؤلفات كثيراً ، على ما كان يمتاز به من التبحر في كل علم ، وفن ، وسعة الاطلاع ، وإجادة الاختيار والاختصار ومن مؤلفاته : شرح السلم في المنطق ، وقد فقد ، و « الأجوبة العراقية عن الأسئلة الاهورية » ، و « الأجوبة العراقية على الأسئلة الإيرانية » ، و « النفحات القدسية في المباحث الإمامية » ، و « الفوائد السننية في علم آداب البحث » ، وبحسبه « روح المعاني » ، الذى اشتمل على مباحث : بعضها يصل إلى رسالة صغيرة ، وكانت وفاته بعد هذه الحياة العلمية المباركة ، عام سبعين ومائتين وألف بعد الهجرة ، فرضى الله عنه وأرضاه .

منهجه في تفسيره وقيمه العلمية

وتفسير « روح المعاني » خير تفسير ، وأجمعه ، وأوفاه ، وقد جمع فيه خلاصة كل كتب التفاسير قبله وحواشيها ، ولا سيما حاشية : تفسير الكشف ، وحاشية الشهاب الخفاجي ، على تفسير البيضاوى ، وقد حل بعض رموزها ، وعباراتها الخفية التى استعصى فهم المراد منها على العلماء ، وله استدراكات قيمة ، وتعقبات دقيقة لمن سبقه من العلماء .

وكثيراً ما يدلى برأيه بين الآراء ، فهو ليس مجرد ناقل ، بل له شخصيته العلمية البارزة ، وأفكاره النيرة ، وليس في تفسيره ما يؤخذ عليه ، إلا كثرة الاستطرادات ، والتوسع فيما يستطرد إليه ، حتى يكاد يفرق القارئ لكتابته في بحر هذه الاستدراكات ، ولو أن أحداً نزع ما استطرد إليه من كتابه ، لجاءت في رسائل كثيرة ، وكذلك :

ذكره للتفسير الإشاري ، فليس تمة ما يدعو إليه ، ولعله فعل ذلك
لنزعة تصوفية ، وليجىء كتابه جامعاً لكل الألوان التفسيرية ، ومرضياً
لجميع الأذواق .

ولما كان الإمام الآلوسی من المتأخرين ، وكانت له مشاركة علمية
في كثير من العلوم ، وسعة إطلاع على كلام من سبقوه ، ولاسيما
علماء الحديث ، وأئمة العارفين بمتونه ، وأسانيده — فمن ثم : لم يقع
فيما وقع فيه بعض المفسرين السابقين له من ذكر الأحاديث
الموضوعة في الفضائل ، وغيرها ، وكذلك خلا تفسيره من الاغترار
بالإسرائيليات وهو إنما ذكرها لينبه إلى اختلاقها ، وبطلانها وتحذير
المسلمين ولاسيما طلبة العلم وأهله من التصديق بها ، أو أن لها أصلاً
في الإسلام ، ولم أعلم أحداً من المفسرين ، بعد العلامة الحافظ ابن
كثير في تفسيره ، حارب الإسرائيليات ، والموضوعات ، مثل ما فعل
الإمام الآلوسی ، في تفسيره ، فقد أفاض في رد هذه الإسرائيليات
والمختلقات ، كما صنع في قصة إسماعيل ، وإسحاق ، وأيهما الذبيح ؟ ،
وبيان أن كونه إسحاق رأى باطل ، تدسس إلى الرواية الإسلامية ،
وفي قصة يوسف ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ونحوها وقصة
الغرائيق .. وقد مكث هذا الإمام في تأليف كتابه خمس عشرة
سنة^(١) ، بحث ، ونقب ، وقرأ ، واختصر ، وسهر فيه الليالي
الطوال ، وكان كثيراً ما ينشد ، وحق له ذلك :

سهرى لتقيح العلوم ألد لي من وصل غانية وطيب عناف
وتمايلي طرباً لجل عويصة أشهى ، وأحسن من مدام الساق
وألد من نقر الفتاة لدفها نقرى لدفع الرمل عن أوراق^(٢)

(١) ابتداء تأليفه في رجب سنة ١٢٥٢ هـ وفرغ منه في ربيع الآخر سنة ١٢٦٧ هـ أى قبل وفاته
بنحو ثلاث سنين .

(٢) كان من عادة السابقين ، وقد أدركناهم أنهم يجففون كتاباتهم بوضع التراب عليها .

حقيقة الروح المسؤول عنه

الظاهر عند المنصف أن السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدار البدن الإنسانى ، ومبدأ حياته ، لأن ذلك من أدق الأمور التى لا يسع أحداً إنكارها ، ويشترئب كل إلى معرفتها ، وتتوفر دواعى العقلاء إليها ، وتكل الأذهان عنها ، ولا تكاد تُعلم إلا بوحى .

رأى ابن القيم :

وزعم ابن القيم أن المسؤول عنه الروح الذى أخبر الله تعالى عنه فى كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة عليهم السلام ، قال : لأنهم إنما يسألونه ﷺ عن أمر لا يُعرف إلا بالوحى ، وذلك هو الروح الذى عند الله تعالى لا يعلمه الناس ، أما أرواح بنى آدم فليست من الغيب إلى آخر ما قال ، وقد أطلال .

وفى البحور الزاخرة أن هذا هو الذى عليه أكثر السلف ، بل كلهم ... والحق ما ذكرنا ، وهو الذى عليه الجمهور كما نص عليه فى البحر وغيره ..

نعم ما زعمه ابن القيم مروي عن بعض السلف ، فقد أخرج عبد ابن حميد وأبو الشيخ عن ابن عباس أنه قال : « الروح خلق من خلق الله تعالى وصورهم على صورة بنى آدم ، وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح ، ثم تلا ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة ﴾ » .

وأخرج أبو الشيخ وغيره من طريق عطاء رضى الله عنه أنه قال فى الروح المسؤول عنه : هو ملك واحد له عشرة آلاف جناح ، جناحان

منها ما بين المشرق والمغرب ، له ألف وجه ، لكل وجه لسان وعينان وشفطان يسبح الله تعالى بذلك إلى يوم القيامة .

وأخرج هو وغيره أيضاً عن عليّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال فيه : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ، لكل وجه منها سبعون ألف لسان ، لكل لسان منها سبعون ألف لغة ، يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ، يخلق الله تعالى من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة .

تعقيب :

وتعقب هذا بأنه لا يصح عن عليّ كرم الله تعالى وجهه ، وطعن الإمام في ذلك بما طعن .

رأى ابن الأنباري :

وأخرج ابن الأنباري في كتاب « الأضداد » عن مجاهد أنه قال : الروح خلق من الملائكة عليهم السلام ، لا يراهم الملائكة كما لا ترون أنتم الملائكة .

وأخرج أبو الشيخ عن سلمان أنه قال : الإنس والجن عشرة أجزاء : فالإنس جزء ، والجن تسعة أجزاء .. والملائكة والجن عشرة أجزاء ، فالجن من ذلك جزء والملائكة تسعة .. والملائكة والروح عشرة أجزاء ، فالملائكة من ذلك جزء والروح تسعة أجزاء .. والروح والكروبيون^(١) عشرة أجزاء ، فالروح من ذلك جزء والكروبيون تسعة أجزاء ..

(١) هم المقربون إلى الله تعالى من الملائكة ، منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل في رأى بعض المفسرين .

رأى الحسن وقتادة :

وقال الحسن وقتادة : الروح هو جبرائيل عليه السلام ، وقد سُمى روحاً في قوله تعالى ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾ (١) ..
والسؤال عن كيفية نزوله وإلقائه الوحي إليه عليه الصلاة والسلام .
وقال بعضهم : هو القرآن ، وقد سُمى روحاً في قوله تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ (٢)
وقيل غير ذلك ..

وزعم بعضهم أن السؤال عن حدوث الروح بالمعنى الأول وقدمه ، وليس بشيء كما ستسمعه إن شاء الله تعالى . .

من الذى سأل عن الروح ؟

وضمير (يسألون) لليهود ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال :

كنت أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب ، فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه . فسألوه ، فقالوا : يا محمد ، ما الروح ؟ . فمازال متوكئاً على العسيب ، فظننت أنه يوحى إليه ، فلما نزل الوحي قال : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ (٣) الآية .

وقال بعضهم : لقريش (٤) ، لما أخرج أحمد والنسائي والترمذى

(١) الشعراء : آية ١٩٣ .

(٢) الشورى آية : ٥٢ .

(٣) انظر صحيح البخارى ، كتاب « العلم » ، باب : « قول الله تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ والترمذى في أبواب التفسير عند تفسيره سورة الإسراء .

(٤) أى الضمير في (يسألون) لقريش .

والحكمة وصحاحه وابن حبان وجماعة عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فسألوه ، فنزلت ﴿ ويسألونك ﴾ (١) .

وفي السير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن قريشاً بعثت النضر بن الحرث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، وقالوا لهم : سلوهم فإنهم أهل كتاب عندهم من العلم ما ليس عندنا .. فخرجوا حتى قدما المدينة ، فسألوهم ، فقالوا : سلوا محمداً عن : أصحاب الكهف وعن ذى القرنين ، وعن الروح ، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي .. فجاءوا وسألوه ، فبين لهم ﷺ القضيتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة .

والآية على هذا وما قبله مكيّة ، وعلى خبر الصحيحين مدنيّة .. وجمع بعضهم بين ذلك بأن الآية نزلت مرتين .. فتدبر .

وأياً ما كان فوجه تعقيب ما تقدم بها إن فسر الروح بالقرآن ظاهر ملائم لقوله تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة ﴾ (٢) ، ولما بعده من الامتنان عليه وعلى متبعية بحفظه في الصدور والبقاء .. وكذلك إن فُسِّرَ بجبرائيل عليه السلام .

وأما على قول الجمهور فقد ورد معترضاً دلالة على خسار الظالمين

(١) رواه الترمذى في أبواب التفسير عند تفسير سورة الإسراء ، وقال : هذا حديث حسن صحيح

غريب من هذا الوجه .

(٢) الإسراء : آية ٨٢ .

وضلالهم ، وأنهم مشغولون عن تدبر الكتاب والانتفاع به إلى التعتن
سؤال ما اقتضت الحكمة سد طريقت معرفته .. ويقال نحو هذا على
القول المروى عن بعض السلف .

﴿قل الروح﴾ أظهر في مقام الإضمار إظهاراً لكمال الاعتناء..
﴿من أمر ربى﴾ : كلمة (من) تبعيضية .. وقيل : بيانية ، والأمر
واحد الأمور بمعنى الشأن ، والإضافة للاختصاص العلمى
لا الإيجادى ، إذ ما من شيء إلا وهو مضاف إليه عز وجل بهذا
المعنى ، وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى كما في الإضافة الثانية من
تشريف المضاف إليه ، أى هى من جنس ما استأثر الله تعالى بعلمه من
الأسرار الخفية التى لا تكاد تدركها عيون عقول البشر .

﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾

لا يمكن تعلقه بأمثال ذلك ، وهذا على ما قيل ترك للبيان ونهى لهم
عن السؤال .

أخرج ابن إسحق وابن جرير عن عطاء بن يسار قال : نزلت هذه
الآية بمكة ، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود فقالوا :
يا محمد ألم يبلغنا أنك تقول : ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾
أفعنيتنا أم قومك ؟ قال : « كلا كما قد عنيت » قالوا : فإنك تتلو أنا
أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء .. فقال رسول الله ﷺ : « هى فى
علم الله قليل ، وقد آتاكم الله تعالى ما إن عملتم به انتفعت » فأنزل الله
تعالى : ﴿ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام﴾ إلى قوله

سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (١) .. وكأنه ﷺ أشار إلى أن المراد في الآية — تبياناً لكل شيء من الأمور الدينية ، ولا شك أنها أقل قليل بالنسبة إلى معلومات الله تعالى التي لا نهاية لها ، وبهذا يُرد على القائل بالعموم الحقيقي .

وفي رواية. النسائي وابن حبان والترمذى والحاكم وصحاحه أن اليهود قالوا حين نزلت الآية : أوتينا علماً كثيراً ، أوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ ﴾ (٢) الآية .

ولا يخفى أن هذا أيضاً لا يلزم منه التناقض ، لأن القلة والكثرة من الأمور الإضافية ، فالشيء يكون قليلاً بالنسبة إلى ما فوقه وكثيراً بالنسبة إلى ما تحته ، فما في التوراة قليل بالنسبة إلى ما في علم الله تعالى شأنه كثير بالنسبة إلى أمر آخر .

وفي رواية أخرجه ابن مردويه عن عكرمة أنه ﷺ لما قال ذلك قال اليهود : نحن نختصون بهذا الخطاب ، فقال : « بل نحن وأنتم » ، قالوا : ما أعجب شأنك .. ساعة تقول ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ وساعة تقول هذا ١١٩ .. فنزل : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ .. إلخ .

ولا يلزم منه التناقض أيضاً على نحو ما تقدم بأن يقال : الحكمة الإنسانية أن يعلم من الخير ما تسعه القوة البشرية بل ما ينتظم به أمر

(١) لقمان اية ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) أنظر سنن الترمذى ، أبواب التفسير عند تفسير سورة الإسراء .. والآية من سورة الكهف رقم

المعاش والمعاد ، وهو قليل بالنسبة إلى معلوماته تعالى ، كثير بالنسبة إلى غيرها ..

وإلى تعميم الخطاب بحيث يشمل الناس أجمعين ذهب ابن جريج كما أخرجه عند ابن جرير وابن المنذر ، لكن يعكّر على القول بالعموم قراءة ابن مسعود والأعمش . (وما أوتوا) فإنه يقتضي الاختصاص بالسائلين .. والحديث الأخير الذى هو نص فيه قال العراقى : إنه غير صحيح .. والحديث الأول الله تعالى أعلم بحاله ..

﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾

وقال غير واحد : معنى كون الروح من أمره تعالى أنه من الإبداعات الكائنة بالأمر التكويني من غير تحصل من مادة وتولد من أصل كالجسد الإنسانى .. فالمراد من الأمر واحد الأوامر ، أعنى (كن) .. والسؤال عن الحقيقة ، والجواب إجمالى ، ومآله أن الروح من عالم الأرض مبدعة من غير مادة ، لا من عالم الخلق .. وهو من الأسلوب الحكيم كجواب موسى عليه السلام سؤال فرعون إياه : ما رب العالمين ؟ إشارة إلى كنه حقيقته مما لا يحيط به دائرة إدراك البشر ، وإنما الذى يعلم هذا المقدار الإجمالى المندرج تحت ما استثنى بقوله تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أى إلا علماً قليلاً تستفيدونه من طرق الحواس ، فإن تعقل المعارف النظرية إنما هو فى الأكثر من إحساس الجزئيات .. ولذلك قيل : من فَقَدَ حسّاً فَقَدَ فَقَدَ علماً .

ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحس لكونه غير محسوس ، أو

تخسوساً منع من إحساسه مانع كالغيبية مثلاً، وكذا لا يدرك شيئاً من عرضياته لرسمه بها فضلاً عن أن ينتقل منها الفكر إلى الذاتيات ليقف على الحقيقة .. وظاهر كلام بعضهم أن الوقوف على كنه الروح غير ممكن ، فلا فرق عنده بين الجوايين .

وفُرق الخفاجي بين بيان كنه الروح ممكن بخلاف كنه الذات الأقدس .. وفي الكشف أن سبيل معرفة الروح إزالة الغشاء عن أبصار القلوب باجتلاء كحل الجواهر في كلام علام الغيوب ، فهو عند المكتحلين أجل جلي ، وعند المشتغلين أخفى خفى .. ويشكل على هذا ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الله بن بريدة قال : لقد قبض النبي ﷺ « وما يعلم الروح » .

ولعل عبد الله هذا يزعم أنها يمتنع العلم بها ، وإلا فلم يُقبض رسول الله ﷺ حتى علم كل شيء يمكن العلم به ، كما يدل عليه ما أخرجه الامام أحمد والترمذي وقال : حديث صحيح ، وسئل البخاري عنه فقال : حديث حسن صحيح ، عن معاذ رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي ، فنعست في صلاتي حتى استثقلت ، فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة ، فقال : يا محمد ، فيم يختصم الملائة الأعلى ؟ قلت : لا أدري رب .. قال : يا محمد ، فيم يختصم الملائة الأعلى ؟ قلت : لا أدري رب .. فرأيتَه وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدرى وتجلَّى لي كل شيء عرفت » (١) الحديث .

(١) انظر مسند أحمد ١ / ٣٦٨ ، ٣٧٨/٥ ، ومسند الدارمي ، كتاب الرؤيا ، باب : رؤية الرب تعالى في النوم .

ويفهم من كلام بعض متأخري الصوفية أنه يمتنع الوقوف على حقيقة الروح ، بل ذكر هذا البعض أن حقيقة جميع الأشياء لا يوقف عليها ، وهو مبني أيضاً على مالا يخفى عليك ، وردّه أو قبوله مفوّض إليك .

ثم إن لي في هذا الوجه وقفة .. فإن الظاهر أن إطلاق عالم الأمر على الكائن من غير تحصيل من مادة وتولد من أصل ، وإطلاق عالم الخلق على خلافه ، محض اصطلاح لا يُعرف للعرب ولا يعرفونه .. وفي الاستدلال عليه بقوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ (١) مالا يخفى على منصف .

أوجه السؤال عن الروح

هذا ، وذكر الإمام أن السؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة ؛ وليس في قوله تعالى ﴿ يُسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ ما يدل على وجه منها ، إلا أن الجواب المذكور لا يليق إلا بوجهين منها :

الأول : كونه سؤالاً عن الماهية .

الثاني : كونه سؤالاً عن القدم والحدوث .

وحاصل الجواب على الأول أنها جوهر بسيط مجرد محدث بأمر الله تعالى وتكوينه وتأثيره إفادة الحياة للجسد ، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة ، فإن أكثر حقائق الأشياء ماهياتها مجهولة ، ولم يلزم من كونها مجهولة نفيها ، ويشير إليه : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا

(١) الأعراف : آية ٥٤

قليلاً ﴿ . ومبنى هذا أيضاً الفرق بين عالم الأمر وعالم الخلق ، وقد سمعت ما فيه .

وحاصل الجواب على الثانى : أنه حادث حصل بفعل الله تعالى وتكوينه وإيجاده ، وجعل قوله تعالى ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ احتجاجاً على الحدوث ، بمعنى أن الأرواح فى مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ، ثم يحصل فيها ذلك ، فلا تزال فى تغير من حال إلى حال ، وهو من أمارات الحدوث .

وأنت تعلم أن حمل السؤال على ما ذكر وجعل الجواب إخباراً بالحدوث مع عدم ملاءمته لحال السائلين لا يساعده التعرض لبيان قلة علمهم ، فإن ما سألوا عنه مما يفى به علمهم حينئذ ، وقد أخبر عنه ، وجعل ذلك احتجاجاً على الحدوث من أعجب الحوادث كما لا يخفى على ذى روح .. والله تعالى أعلم .

وههنا أبحاث لا بأس بإيرادها :



شرح مذاهب الناس في حقيقة الإنسان

مذهب جمهور المتكلمين :

ذهب جمهور المتكلمين إلى أنه عبارة عن هذه البنية المحسوسة والهيكل المجسم المحسوس ، وهو الذى يشير إليه الإنسان بقوله (أنا) .. وأبطل ذلك الإمام^(١) بسبع عشرة حجة عقلية وعقلية ، لكن للبحث في بعضها مجال ، منها ما تقدم من أن أجزاء البنية متغيرة زيادة ونقصاناً وذبولاً ونمواً ، والعلم الضرورى قاض بأن الإنسان من حيث هو أمر باقٍ من أول العمر إلى آخره ، وغير الباقي غير الباقي !! .

ومنها أن الإنسان قد يعتريه ما يشغله عن الالتفات إلى أجزاء بنيته كلاً وبعضاً ، ولا يغفل عن نفسه المعينة بدليل أنه يقول مع ذلك الشاغل : فعلت ، وتركت مثلاً ، وغير المعلوم غير المعلوم !!

ومنها أنه قد توجد البنية المخصوصة ، وحقيقة الإنسان غير حاصلة ، فإن جبريل عليه السلام كثيراً ما رأى في صورة دحية الكلبي ، وإبليس عليه اللعنة رأى في صورة شيخ نجدى ، وقد تنتفى البنية مع بقاء حقيقة الإنسان ، فإن الممسوخ مثلاً قرداً باقية حقيقته مع انتفاء البنية المخصوصة وإلا لم يتحقق مسخ بل إماتة لذلك الإنسان وخلق قرد .

(١) يعنى : الإمام المعز الراى . وسبق أن فصلنا هذا المذهب ، وذكرنا حجج الإمام في إبطاله .

ومنها أنه جاء في الخير أن الميت إذا حُمل على النعش رفرف روحه فوق النعش ويقول : يا أهلى ويا ولدى ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بى ، جمعتُ المال من حلّه ومن غير حلّه ثم تركته لغيرى ، فالهناء له والتبعة علىّ ، فاحذروا مثل ما حل بى .. فصّرّح رسول الله ﷺ بأن هناك شيئاً ينادى غير المحمول كان الأهل أهلاً له وكان الجامع للمال من الحلال والحرام ، وليس ذلك إلا الإنسان .. إلى غير ذلك مما ذكره فى تفسيره .

قول جمهور المحققين :

وقيل : إن الإنسان هو الروح الذى فى القلب ..

وقيل : إنه جزء لا يتجزأ فى الدماغ .

وقيل : إنه أجزاء نارية مختلطة بالأرواح القلبية والدماغية ، وهى المسماة بالحرارة الغريزية .

وقيل : هو الدم الحال فى البدن ..

وقيل ، وقيل ... إلى نحو ألف قول .

والمعول عليه عند المحققين قولان :

الأول : أن الإنسان عبارة عن جسم نورانى علوى حى متحرك مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، سار فيه سريان الماء فى الورد ، والدهن فى الزيتون ، والنار فى الفحم ، لا يقبل التحلل والتبدل والتفرق والتمزق ، مفيد للجسم المحسوس الحياة وتوابعها مادام صالحاً لقبول الفيض لعدم حدوث ما يمنع من السريان كالأخلاط الغليظة ، ومتى حدث ذلك حصل الموت لا نقطاع السريان . والروح عبارة عن ذلك الجسم ..

واستحسن هذا الإمام ، فقال : هو مذهب قوى ، وقول شريف
يجب التأمل فيه ، فإنه شديد المطابقة لما ورد في الكتب الإلهية من
أحوال الحياة والموت .

وقال ابن القيم في كتابه (الروح) : إنه الصواب ولا يصح غيره ،
وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، وأدلة العقل والفطرة ،
وذكر له مائة دليل وخمسة أدلة ، فليراجع .

الثاني : أنه ليس بجسم ولا جسماني وهو الروح ، وليس بداخل
العالم ولا خارجه ، ولا متصل به ولا منفصل عنه ، ولكنه متعلق
بالبدن تعلق التدبير والتصرف .. وهو قول أكثر الإلهيين من
الفلاسفة .. وذهب إليه جماعة عظيمة من المسلمين منهم : الشيخ أبو
القاسم الراغب الأصفهاني ، وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي .. ومن
المعتزلة : معمر بن عباد السلمي .. ومن الشيعة : الشيخ المفيد ..
ومن الكرامية : جماعة .. ومن أهل المكاشفة والرياضة أكثرهم .. وقد
قدّمنا لك الأدلة على ذلك .

ومن أراد الإحاطة بذلك فليرجع إلى كتب الشيخين : أبي علي ،
وشهاب الدين المقتول ، وإلى كتب الإمام الرازي كالمباحث المشرقية
وغيره .. وللشيخ الرئيس رسالة مفردة في ذلك سمّاها بالحجج الغر
أحكمها وأتقنها ما يتنى على تعمل النفس لذاتها ، وابن القيم زيف
حججه في كتابه ، وهو كتاب مفيد جداً ، يهب للروح روحاً ،
ويورث للصدر شرحاً .

واستدل الإمام على ذلك في تفسيره بالآية المذكورة ، فقال : إن
الروح لو كان جسماً منتقلاً من حالة إلى حالة ومن صفة إلى صفة
لكان مساوياً للبدن في كونه متولداً من أجسام اتصفت بصفات

مخصوصة بعد أن كانت موصوفة بصفات أخر .. فإذا سئل رسول الله ﷺ عنه وجب أن يبين أنه جسم كان كذا ثم صار كذا وكذا حتى صار روحاً مثل ما ذكر في كيفية تولد البدن : أنه كان نطفة ، ثم علقه ، ثم مضغة ، فلما لم يقل ذلك وقال : هو من أمر ربي ، بمعنى أنه لا يحدث ولا يدخل في الوجود إلا لأجل أن الله تعالى قال له : كن .. فيكون ، دل ذلك على أنه جوهر ليس من جنس الأجسام ، بل هو جوهر قدمي مجرد ، ولا يخفى أن ذلك من الإقناعات الخطابية وهي كثيرة في هذا الباب ، منها قوله تعالى : ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ (١) .. وقوله سبحانه : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ (٢) .. فإن هذه الإضافة مما تنبه على شرف الجوهر الإنسي وكونه عرياً عن الملابس الحسية .. ومنها قوله ﷺ : « أنا النذير العريان » (٣) .. ففيه إلى تجرد الروح عن علائق الأجرام .

وقوله ﷺ : « إن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن » ، وفي رواية « على صورته » (٤) .

وقوله ﷺ : « أبيت عن ربي يطعمني ويسقيني »

ففي ذلك إيدان بشرف الروح وقربه من ربه قريباً بالذات والصفات مجرداً عن علائق الأجرام وعوائق الأجسام إلى غير ذلك مما لا يحصى ، وهو على هذا المنوال ، وللبحث فيه مجال أي مجال .

(١) الحجر : آية ٢٩ ، ص : آية ٧٢ .

(٢) النساء : آية ١٧١ .

(٣) انظر صحيح مسلم كتاب الفضائل حديث ١٦ ، والبخاري في كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ .

(٤) رواه البخاري من حديث طويل ، كتاب « الاستئذان » باب « بدء الأذان » .

وكان ثابت بن قرة يقول : إن الروح جسم متعلق بأجسام سماوية نورانية لطيفة غير قابلة للسكون والفساد والتمزق ، وتلك الأجسام سارية في البدن ، وهى مادامت سارية كان الروح مدبراً للبدن ، وإذا انفصلت عنه انقطع التعلق ، وهو قول ملفق وأنا لا أستبعده .

حدوث الروح وقدمه

أجمع المسلمون على أنه حادث حدوثاً زمنياً كسائر أجزاء العالم ، إلا أنهم اختلفوا في أنه : هل هو حادث قبل البدن أم بعده .

(أ) من يرى حدوث الروح قبل البدن :

ذهب طائفة إلى الحدوث قبل ، منهم : محمد بن نصر المروزي ، وأبو محمد بن حزم الظاهري وحكاة إجماعاً ، وقد افترى .. واستدل لذلك بما في الصحيحين من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قال : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »^(١) . قال ابن الجوزي في تبصرته : قال أبو سليمان الخطابي : معنى هذا الحديث : الإخبار عن كون الأرواح مخلوقة قبل الأجساد .. وزعم ابن حزم أنها في برزخ وهو منقطع العناصر ، فإذا استعد جسد لشيء منها هبط إليه ، وأنها تعود إلى ذلك البرزخ بعد الوفاة ، ولا دليل لهذا من كتاب أو سنة . وبعضهم استدلل على ذلك بخبر خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بألفى عام .. وتعقبه ابن القيم بأنه لا يصح إسناده ..

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب « بدء الخلق » ، باب « الأرواح جنود مجندة » ، ومسلم كتاب

« البر والصلة » حديث ١٥٩ .

(ب) من يرى حدوث الروح بعد البدن :

وذهب آخرون منهم حجة الإسلام الغزالي إلى الحدوث بعد ..
ومن أدلة ذلك كما قال ابن القيم :

الحديث الصحيح : « إن الله خلق ابن آدم يُجمع في بطن أمه
أربعين يوماً دماغاً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل
ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح^(١) . ووجه الاستدلال :
أن الروح لو كان مخلوقاً قبل لقليل : ثم يرسل إليه الملك بالروح فيدخله
فيه .

وصرح في (روضة المحبين ونزهة المتقين) باختيار هذا القول :
فقال إن القول بأن الأرواح خلقت قبل الأجساد قول فاسد وخطأ
صريح ، والقول الصحيح الذي دلّ عليه الشرع والعقل أنها مخلوقة مع
الأجساد ، وأن الملك ينفخ الروح أى يحدثه بالنفخ في الجسد إذا مضى
على النطفة أربعة أشهر ودخلت في الخامس .. ومن قال إنها مخلوقة قبل
فقد غلط .. وأقبح منه من قول من قال : إنها قديمة .. إنتهى . وفيه
تأمل .. ويوافق مذهب الحدوث قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً
آخر ﴾^(٢) .. فليفهم .

بطلان قول الفلاسفة بقدّم الروح :

وذهب أفلاطون ومن تقدمه من الفلاسفة إلى قدّم الروح ..
وذهب المعلم الأول إلى حدوثها مع حدوث البدن المستعد له ، كما
ذهب إليه بعض الإسلاميين .. وقد تقدم الكلام في استدلال كل

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب « بدء الخلق » باب « ذكر الملائكة » ، ورواه مسلم في
صحيحه ، كتاب « القدر » حديث رقم ١ . وابن ماجه في المقدمة ، حديث رقم ٧٦ وأحمد في المسند
٣٨٢/١ .

(٢) المؤمنون : آية ١٤

جرحاً وتعديلاً .

ويُقال هنا : أن المعلم الأول قائل كغيره من الفلاسفة بتجرد الروح المسماة بالنفس الناطقة عندهم عن المادة ، فكيف يسعه القول بحدوثها مع قولهم : كل حادث زمانى يحتاج إلى مادة ؟ .

وأجيب : بأن المادة ههنا أعم من المحل والمتعلق به ، والبدن مادة للنفس بهذا المعنى ، وأنت تعلم أن استعداد الشيء للشيء لا يكون إلا فيما إذا كان ذلك مقترناً به لا مبايناً عنه ، فالأولى أن يُقال : إن البدن الإنسانى لما استدعى لمزاجه الخاص صورة مدبرة له بتصرفه فيه ، أى أمراً موصوفاً بهذه الصفة من حيث هو كذلك ، وجب على مقتضى جود الواهب الفياض وجود أمر يكون مبدأ للتدابير الإنسانية والأفاعيل البشرية ، ومثل هذا الأمر لا يمكن إلا أن يكون ذاتاً مدركة للكليات مجردة فى ذاتها فلا محالة قد فاض عليه حقيقة النفس لا من حيث أن البدن استدعاها ، بل من حيث عدم انفكاكها عما استدعاه .

فالبدن استدعى باستعداده الخاص أمراً مادياً وجود المبدأ الفياض أفاد جوهرأً قدسياً .. وكما أن الشيء الواحد قد يكون على ما قرروه جوهرأً أو عرضاً باعتبارين ، كذلك يكون أمر واحد مجرداً ومادياً باعتبارين ، فالنفس الإنسانية مجردة ذاتاً مادية فعلاً ، فهى من حيث الفعل من التدبير والتحريك مسبوقة باستعداد البدن مقترنة به ، أما من حيث الذات والحقيقة فممنشأ وجودها وجود المبدأ الواهب لا غير ، فلا يسبقها من تلك الحثيثة استعداد البدن ولا يلزمها الاقتران فى وجودها به ، ولا يلحقها شيء من مثالب الماديات إلا بالعرض .

ويمكن تأويل ما نقل عن أفلاطون فى باب قِدم النفس إلى هذا بوجه لطيف ، كذا قاله بعض صدور المتأخرين فتأمله .

الروح .. والنفس

اختلف الناس فى الروح والنفس : هل هما شئ واحد أم شيئان ؟

• فحكى ابن زيد عن أكثر العلماء أنهما شئ واحد ، فقد صح فى الأخبار إطلاق كل منهما على الآخر ، وما أخرجه البزار بسند صحيح عن أبى هريرة رفعه : « إن المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين يود لو خرجت نفسه ، والله تعالى يحب لقاءه ، وإن المؤمن تصعد روحه إلى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين فيستخبرونه عن معارفه من أهل الدنيا » .. الحديث ظاهر فى ذلك .

• وقال ابن حبيب : هما شيئان .. فالروح هو النفس المتردد فى الإنسان ، والنفس أمر غير ذلك لها يدان ورجلان ورأس وعينان ، وهى التى تلتذ وتتألم وتفرح وتحزن .. وإنما هى التى تتوفى فى المنام وتخرج وتسرح وترى الرؤيا ويبقى الجسد دونها بالروح فقط لا يلتذ ولا يفرح حتى تعود .. واحتج بقوله تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس ﴾ (١) . الآية .

• وحكى ابن منده عن بعضهم أن النفس طينية نارية والروح نورية روحانية .

• وذكر أن أهل الأثر على المغايرة ، وأن قوام النفس بالروح ، والنفس صورة العبد والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها .. ولا عدو

(١) الزمر : آية ٤٢ .

أعدى لابن آدم من نفسه ، لا تريد إلا الدنيا ولا تحب إلا إياها ..
والروح تدعو إلى الآخرة وتؤثرها .

● وظاهر كلام بعض محققى الصوفية القول بالمغايرة .. ففى (منتهى
المدارك) للمحقق الفرغانى : أن النفس المضافة إلى الإنسان عبارة عن
بخار ضبابى منبعث من باطن القلب الصنوبرى ، حامل لقوة الحياة ،
متجس بأثر الروح الروحانية المرادة بقوله تعالى ﴿ ونفخت فيه من
روحى ﴾ (١) الثابت تعيينها فى عالم الأرواح وأثرها واصل إلى هذا
البخار الحامل للحياة .. فالنفس إذن أمر مجتمع من البخار ووصف
الحياة وأثر الروح الروحانية .. وهذه النفس بحكم تجنسها بأثر الروح
الروحانية متعينة لتدبير البدن الإنسانى قابلة لمعالى الأمور وسفاسفها ،
كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ فآلهمها فجورها وتقواها ﴾ (٢) .

والروح الروحانية أمر لا يكتنه ، والحق أنهما قد يتحدان وقد
يتغايران . وابن القيم اعتمد ما عليه الأكثرون من الاتحاد ذاتاً .. وذكر
غير واحد : أنه هو الذى عليه الصوفية ، بيد أنهم قالوا : إن النفس
هى الأصل فى الإنسان ، فإذا صقلت بالرياضة وأنواع الذكر والفكر
صارَت روحاً ، ثم قد تترقى إلى أن تصير سرّاً من أسرار الله تعالى .

(١) الحجر : آية ٢٩ ، ص : آية ٧٢ .

(٢) الشمس : آية ٨ .

مراتب النفس

وتفصيل الكلام حينئذ في هذا المقام :

أن للنفس مراتب تترقى فيها :

— الأولى : تهذيب الظاهر باستعمال التواميس الإلهية من القيام والصيام وغيرهما .

— الثانية : تهذيب الباطن عن الملكات الردية والأخلاق الدنية .

— الثالثة : تحلى النفس بالصور القدسية .

— الرابعة : فناؤها عن ذاتها وملاحظتها جلال رب العالمين جل جلاله .

ويقال في كيفية الترقى في هذه المراتب أن الإنسان أول ما يولد فهو كباقي الحيوانات لا يعرف إلا الأكل والشرب ، ثم بالتدريج يظهر له باقى صفات النفس من الشهوة ، والغضب ، والحرص ، والحسد ، وغير ذلك من الهيات التى هى نتائج الاحتجاب والبعد من معدن الجود والصفات الكمالية .. ثم إذا تيقظ من سِنَّة الغفلة وقام من نوم الجهل وبان له أن وراء هذه اللذات البهيمية لذات أُخر ، وفوق هذه المراتب مراتب أُخر كمالية ، يتوب عن اشتغاله بالمنهيات الشرعية وينيب إلى الله تعالى بالتوجه إليه ، فيشرع فى ترك الفضول الدنيوية طلباً للكماليات الأخروية ، ويعزم عزماً تاماً ، ويتوجه إلى السلوك إلى ملك الملوك من مقام نفسه ، فيهاجر منه ، ويقع فى الغربة ، وياطوبى للغرباء !! وإن قيل : إن الغربة للأحرار ذبح .. ثم إذا دخل فى الطريق يزهّد عن كل ما يعوقه عن مقصوده ويصدّه عن معبوده ، فيتصف

بالنور والتقوى والزهد الحقيقي ، ثم يخاسب نفسه دائماً في أقواله وأفعاله ، ويَتَّهَمُها وفي كل ما تأمر به وإن كان عبادة ، فإنها مجبولة على حب الشهوات ، ومطبوعة على الدسائس الخفيات ، فلا ينبغي أن يأمنها ويكون على ثقة منها .

يُحَكِّي عن بعض الأكابر أن نفسه لم تنزل تأمره بالجهاد وتخته عليه ، فاستغرب ذلك ، ثم فطن أنها تريد أن تستريح من نَصَب القيام والصيام بالموت ، فلم يُجِبها إلى ذلك .. فإذا خلص منها وصفا وقته وطاب عيشه بما يجده في طريق المحبوب يتنور بباطنه ، ويظهر له لوامع أنوار الغيب ، ويفتح له باب الملكوت ، وتلوح منه لوائح مرة بعد أخرى ، فيشاهد أموراً غيبية في صور مثالية ، فإذا ذاق شيئاً منها يرغب في العزلة والخلوة والذكر والمواظبة على الطهارة والعبادة والمراقبة والمحاسبة ، ويعرض عن الملاذ الحسية كلها ، ويفرغ القلب عن محبتها ، فيتوجه بباطنه إلى الحق تعالى بالكلية ، فيظهر له الوجد والسكر والشوق والعشق والهيمن ، ويجعله فانياً عن نفسه ، غافلاً عنها ، فيشاهد الحقائق السرية ، والأنوار الغيبية ، فيتحقق بالمشاهدة والمعاينة والمكاشفة ، ويظهر له أنوار حقيقية تارة وتختفى أخرى ، حتى يتمكن ويتخلص من التلوين ، وينزل عليه السكينة الروحية ، والطمأنينة الإلهية .. ويصير ورود هذه البوارق والأحوال له ملكة ، فيدخل في عوالم الجبروت ، ويشاهد العقول المجردة والأنوار القاهرة من الملائكة المقرَّبين والمهمَّين ، ويتحقق بأنوارهم ، فيظهر له أنوار سلطان الأحدية وسواطع العظمة الإلهية ، فتجعله هباءً منثوراً ، ويندك حينئذ جبال إنيتته ، فيخر الله تعالى خروراً ، ويتلاشى في التعين الذاتي ، ويضمحل وجوده في الوجود الإلهي .. وهذا مقام الفناء

والحو ، وهو غاية السفر الأول للسالكين .. فإن بقي في الفناء والحو ولم ينجى إلى البقاء والصحو صار مستغرقاً في عين الجمع ، محجوباً بالحق عن الخلق ، لا يزيغ بصره عن مشاهدة جماله عز شأنه وأنوار ذاته وجلاله ، فاضمحلت الكثرة في شهوده ، واحتجب التفصيل عن وجوده ، وذلك هو الفوز العظيم .

وفوق ذلك مرتبة يرجع فيها إلى الصحو بعد الحو ، وينظر إلى التفصيل في عين الجمع ، ويسع صدره الحق والخلق فيشاهد الحق في كل شيء ، ويرى كل شيء بالحق على وجه لا يوجب التكثر والتجسم ، وهو طور وراء طور العقل .

ووقع في عبارة بعضهم أنه قد يصير العارف متخلياً بأخلاق الله تعالى بالحقيقة لا بمعنى صيرورة صفاته تعالى عرضاً قائماً بالنفس ، فإن هذا مما لا يتصور أبداً ، والقول به خروج عن الشريعة والطريقة والحقيقة ، بل بمعنى علاقة أخرى أتم من علاقتها مع الصفات الكونية البدنية وغيرها نعلم حقيقتها .

ولعل مرادهم بالمرتبة التي تترقى إليها النفس فتكون سرّاً من أسرار الله تعالى هي هذه المرتبة ، والاطلاع عليها يحتاج إلى سلوك طريقة الأبرار ولا يتم بمجرد الأنظار والأفكار .. والله تعالى الموفق للسلوك والمتفضل بالغنى على الصعلوك .

هل تموت الروح أم لا ؟!!

اختلف الناس :

هل تموت الروح أم لا ؟

- فذهبت طائفة إلى أنها تموت لأنها نفس ، وكل نفس ذائقة الموت .. وقد دلّ الكتاب على أنه لا يبقى إلا الله تعالى وحده ، وهو .. سندعى هلاك الأرواح كغيرها من المخلوقات ، وإذا كانت الملائكة منهم السلام يموتون ، فالأرواح البشرية أولى .. وأيضاً أخبر سبحانه عن أهل النار أنهم يقولون : ﴿ أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتُنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ (١) .. ولا تتحقق الإماتتان إلا بإماتة البدن مرة ، وإماتة الروح أخرى .
- وقالت طائفة : إنها لا تموت ، للأحاديث الدالة على نعيمها وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله تعالى إلى الجسد .

وإن قلنا بموتها لزم انقطاع النعيم والعذاب ..

- والصواب أن يُقال : موت الروح هو مفارقتها للجسد ، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت .. وإن أريد أنها تعدم وتضمحل فهي لا تموت بل تبقى مفارقة لما شاء الله تعالى ثم تعود إلى الجسد ، ويبقى معه في نعيم أو عذاب أبد الآبدين ودهر الداهرين ، وهي مستثناه ممن يصعق عند النفخ في الصور على أن الصعق لا يلزم منه الموت ، والهلاك ليس مختصاً بالعدم ، بل يتحقق بخروج الشيء عن حد الانتفاع به ونحو ذلك .. وما ذكر في تفسير الإماتتين غير مسلم .
- وإلى أنها لا تموت بموت البدن ذهبت الفلاسفة أيضاً .. واحتج الشيخ عليه بأن قال :

(١) غافر : آية ١١ .

قد ثبت أن النفس يجب حدوثها عند حدوث البدن ، فلا يخلو إما أن يكونا معاً في الوجود أو لأحدهما تقدّم على الآخر .. فإن كانا معاً ، فلا يخلو إما أن يكونا معاً في الماهية أو لا في الماهية ، والأول باطل ، وإلا لكانت النفس والبدن متضايفين^(١) لكنهما جوهران هذا خلف^(٢) .. وإن كانت المعية في الوجود فقط من غير أن يكون لأحدهما حاجة في ذلك الوجود إلى الآخر ، فعدم كل واحد منهما يوجب عدم تلك المعية إما لا يوجب عدم الآخر ، وإما إن كان لأحدهما في الوجود إلى الآخر ، فلا يخلو : إما أن يكون المقدم هو النفس أو البدن .. فإن كان المقدم في الوجود هو النفس ، فذلك التقدم إما أن يكون زمانياً أو ذاتياً ، والأول باطل ، لما ثبت أن النفس ليست موجودة قبل البدن .. وأما الثاني : فباطل أيضاً ، لأن كل موجود يكون وجوده معلول شيء كان عدمه معلول عدم ذلك الشيء .. إذ لو انعدم ذلك المعلول مع بقاء العلة لم تكن تلك العلة كافية في إيجابها .. فلا تكون العلة علة بل جزء من العلة هذا خلف .

فإذا كان البدن معلولاً لامتنع عدم البدن إلا لعدم النفس .

والتالى بطلان البدن قد ينعدم لأسباب أخر مثل : سوء المزاج ، أو سوء التركيب ، أو تفرق الاتصال ، فبطل أن تكون النفس علة للبدن .. وباطل أيضاً أن يكون البدن علة للنفس .. لأن العلل كما عرف أربع ، ومحال أن يكون البدن علة فاعلية للنفس .. فإنه

(١) التضاييف : الإضافة بمعناها عند الحكماء ويُسمى ما بينهما تلك النسبة متضايفين .
والإضافة عند الحكماء نسبة بين شيئين يقتضى وجود أحدهما وجود الآخر كالأخوة والبنوة والأبوة والصدقة .

(٢) الخُلف في علم الفلسفة : المحال الذى يناهى المنطق ، وينتألف المعقول .
والجوهر في الفلسفة : ما قام بنفسه ويقابله القَرَض وهو ما قام بغيره .

لا يخلو : إما أن يكون علة فاعلية لوجود النفس بمجرد جسميته أو
لأمر زائد على جسميته ، والأول باطل ، وإلا لكان كل جسم
كذلك .. والثاني باطل ، أما أولاً : فلما ثبت أن الصور المادية إنما
تفعل بواسطة الوضع ، وكل مالا يفعل إلا بواسطة الوضع استحال أن
يفعل أفعالاً مجردة عن الحيز والوضع .. وأما ثانياً : فلأن الصور المادية
أضعف من المجرد القائم بنفسه ، والأضعف لا يكون سبباً للأقوى ،
ومحال أن يكون البدن علة قابلية ، لما ثبت أن النفس مجردة مستغنية
عن المادة ، ومحال أن يكون علة صورية للنفس أو تامة ، فإن الأمر
أولى أن يكون بالعكس ، فإذاً ليس بين البدن والنفس علاقة واجبة
الثبوت أصلاً .. فلا يكون عدم أحدهما علة لعدم الآخر .
فإن قيل :

ألستم جعلتم البدن علة لحدوث النفس ؟

فنقول : قد بين أن الفاعل إذا كان منزهاً عن التغير ثم صدر عنه
الفعل بعد أن كان غير صادر فلا بد أن يكون لأجل أن شرط الحدوث
قد حصل في ذلك الوقت دون ما قبله .. ثم إن ذلك الشرط لما كان
شرطاً للحدوث فقط وكان غنياً في وجوده عن ذلك الشيء ، استحال
أن يكون عدم ذلك الشرط مؤثراً في عدم ذلك الشيء .. ثم لما اتفق أن
كان ذلك الشرط مستبعداً لأن يكون آلة للنفس في تحصيل
الكمالات ، والنفس لذاتها مشتاقة إلى الكمال لا جرم حصل للنفس
شوق طبيعي إلى التصرف في ذلك البدن والتدبير فيه على الوجه
الأصلح ، ومثل ذلك لا يمكن أن يكون عدمه علة لعدم ذلك
الحادث ، بل ذهب الفلاسفة إلى استحالة انعدام النفس ، وبرهنوا على
ذلك بما برهنوا ، وعندنا : لا استحالة في ذلك .

تمايز الأرواح بعد مفارقتها الأبدان

نص ابن القيم على أن كل روح تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها .. وأن تمايز الأرواح أعظم من تمايز الأبدان ..

إلا أنه زعم أنه لا يمكن التمايز بينها على القول بأنها جوهر مجرد عن المادة ، وفيه نظر .. فإن القائلين بذلك قائلون بالتمايز أيضاً باعتبار ما يحصل لا من التعلق بالبدن أو بنحو آخر من التمايز .

وذكر الشيخ (إبراهيم الكوراني) في بعض رسائله أن الأرواح بعد مفارقتها أبدانها المخصوصة تتعلق بأبدان آخر مثالية حسبما يليق بها ، وإلى ذلك الإشارة بالطير الخضر في حديث الشهداء .. ففي صحيح مسلم عن ابن مسعود أن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر^(١) .

وأخرج سعيد بن منصور عن مكحول عن النبي ﷺ أن ذراري المؤمنين أرواحهم في عصافير في شجرة في الجنة .. أي أنها تكون في أبدان على تلك الصور .

ويؤيد ذلك رواية ابن ماجه عن ابن مسعود : أرواح الشهداء عند الله تعالى كطير خضر^(٢) .. وفي لفظ عن كعب : أرواح الشهداء طير خضر .

ولفظ ابن عمر : في صورة طير بيض .

وفي رواية على بن عثمان اللاحقي عن مكحول : أن ذراري المؤمنين أرواحهم عصافير في الجنة .

(١) انظر صحيح مسلم ، كتاب « الإمارة » ، حديث رقم ١٢١ .

(٢) انظر سنن ابن ماجه ، كتاب الجهاد ، حديث رقم ١٨٠١ .

وعلى هذا يكون إنكار قوم من المتكلمين خير : فى أجواف طير ، وكذا خبر : فى عصافير ، لما فى ذلك من تعلق روحين فى بدن واحد ، وقد قالوا باستحالته ، ناشئاً من عدم التأمل والتثبت ، لأنه على ما قررنا لا يكون للطائر روح غير روح الشهيد ، على أنه لو بقى الخبر على ظاهره لم يلزم محال ، لجواز أن تكون الروح فى جوف الطير على نحو كون الحنين فى بطن أمه .. فتدبر .

مستقر الأرواح بعد مفارقتها الأبدان

الذى دلت عليه الأخبار أن مستقر الأرواح بعد المفارقة مختلف :
● فمستقر أرواح الأنبياء عليهم السلام فى أعلى عليين ، وصح أن آخر كلمة تكلم بها ﷺ : «اللهم الرفيق الأعلى»^(١) ، وهو يؤكد ما ذكر .

● ومستقر أرواح الشهداء فى الجنة ، ترد من أنهارها وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش .

وروى فى أرواح أطفال المؤمنين ما هو قريب من ذلك ..

وروى ابن المبارك عن كعب قال : جنة المأوى جنة فيها طير خضر ترعى فيها أرواح الشهداء على بارق نهر يباب الجنة فى قبة خضراء

(١) رواه مسلم من حديث عائشة ، كتاب الفضائل حديث رقم ٨٧ ، والبخارى بنحوه فى كتاب الدعوات ، والفضائل والمغازى ..

يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً .. ولعلّ هذا — كما قال ابن رجب — في عوام الشهداء ، وما تقدّم في خواصهم .. أو لعل هذا في شهداء الآخرة كالغريق والمبطون إلى غير ذلك .

• وأما مستقر أرواح سائر المؤمنين فقليل في الجنة أيضاً ، وهو نص الإمام الشافعي .. وقد أخرج الإمام مالك عن كعب بن مالك مرفوعاً : « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله تعالى في جسده حين يبعثه »^(١) ورواه الإمام أحمد في مسنده ، وخرّجه النسائي من طريق مالك ، وخرّجه ابن ماجه ، ورواه خلق كثير .

وروى ابن منده من حديث أم بشر مرفوعاً ما هو نص في أن مستقر أرواح المؤمنين نحو مستقر أرواح الشهداء .

وقال وهب بن منبه : إن لله تعالى في السماء السابعة داراً يُقال لها البيضاء يجتمع فيها أرواح المؤمنين .

• ومستقر أرواح الكفار في سجين .. وفي حديث أم بشر أن أرواح الكفار في حواصل طير سود تأكل من النار ، وتشرب من النار ، وتأوى إلى حجر في النار ، يقولون : ربنا لا تلحق بنا إخواننا ولا تؤتنا ما وعدتنا .

(١) رواه مالك في الموطأ كتاب الجنائز حديث رقم ٤٩ ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، حديث رقم ٣٧ والنسائي في كتاب الجنائز ، باب أرواح المؤمنين .

وقيل : مستقر أرواح الموتى أفنية قبورهم .. وحكى هذا ابن حزم عن عامة أهل الحديث ، واستدل له بعضهم بحديث ابن عمر عن النبي ﷺ : « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يُقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى » (١) .. وبأنه ﷺ حين زار الموتى قال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين » (٢) .

ورجح ابن عبد البر أن مستقر أرواح ما عدا الشهداء بأفنية القبور ، وفيه أنه إن أُريد أن الأرواح لا تفارق الأفنية فهو خطأ يرده الكتاب والسنة ، وإن أُريد أنها تكون هناك وقتاً من الأوقات كما روى عن مجاهد : الأرواح على القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت ، أو لها إشراق على قبورها وهي في مقرها ، فهو حق .. لكن لا يقال مستقرها أفنية القبور . وعوّل بعض المحققين على أن الأرواح حيث كانت لها اتصال لا يعلم حقيقة إلا الله تعالى ، وبذلك ترد السلام ، وتعرف المسلم ، ويعرض عليها مقعدها من الجنة أو النار .

وقال بعضهم : لا مانع من انتقالها من مستقرها وعودها إليه في أسرع وقت حيث شاء الله تعالى ذلك ..

نعم .. جاء في حديث البراء بن عازب ما يدل على أن أرواح

(١) رواه مسلم في كتاب « الجنة وصفة نعيمها » حديث رقم ٦٥ ، والبخاري في كتاب « الجائز » باب « الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي » .

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ، كتاب « الطهارة » حديث رقم ٣٩ .

المؤمنين تستقر في الأرض ولا تعود إلى السماء بعد عرضها ، حيث قال فيه في صفة قبض روح المؤمن : فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه في عليين ويقول الرب تعالى شأنه : « ردُّوا عبادي إلى مضجعه فإني وعدتهم أني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى » .

وفي لفظ : « ردُّوا روح عبادي إلى الأرض ، فإني وعدتهم أن أردِّهم فيها » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ ^(١) الآية .

لكن قال الحافظ ابن رجب : إن حديث البراء وحده لا يعارض الأحاديث الكثيرة المصرحة بأن الأرواح في الجنة لاسيما الشهداء .. وقوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ الخ ، باعتبار الأبدان .

• وقالت طائفة : مستقر الأرواح مطلقاً في السماء الدنيا عن يمين آدم عليه السلام وعن شماله .. ويدل عليه ما في الصحيحين :

عن أبي ذر من حديث المعراج .. ففيه : « لما فتح علونا السماء الدنيا ، فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقال : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح ، قلت لجبريل : « من هذا ؟ » قال : آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسمة بنييه ، وأهل اليمين هم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار » ^(٢) .

(١) ذكره ابن القيم في كتابه « الروح » وعزاه إلى ابن منده في كتاب « الروح والنفس » .

(٢) رواه البخاري في كتاب الصلاة ، الباب الأول ، ومسلم في كتاب « الإيمان » حديث رقم ٢٦٣ .

ويُجاب بأن المراد أنه عليه السلام يرى هذين الصنفين من جهة يمينه وجهة شماله وهو يجمع كون أرواح كل فريق في مستقرها من الجنة والنار .. فقد رأى النبي ﷺ الجنة والنار في صلاة الكسوف وهو في الأرض ، والجنة ليست فيها .. ورآهما وهو في السماء والنار ليست فيها . وفي حديث لأبي هريرة في الإسراء ما يؤيد ما قلنا .

تقسيم الإمام النسفي للأرواح :

والنسفي في بحر الكلام جعل الأرواح على أربعة أقسام :

١ — أرواح الأنبياء عليهم السلام ، تخرج من جسدها ، ويصير مثل صورتها مثل المسك والكافور وتكون في الجنة ، تأكل وتشرب وتتنعم ، وتأوى بالليل إلى قناديل معلقة تحت العرش .

٢ — وأرواح الشهداء تخرج من جسدها وتكون في أجواف طير خضر في الجنة ، تأكل وتتنعم وتأوى إلى قناديل كأرواح الأنبياء عليهم السلام .

٣ — وأرواح المطيعين من المؤمنين برض الجنة لا تأكل ولا تمتنع ولكن تنظر إلى الجنة .. وأرواح العصاة منهم تكون بين السماء والأرض في الهواء .

٤ — وأما أرواح الكفار ففي سجين ، في جوف طير سود تحت الأرض السابعة وهي متصلة بأجسادها ، فتعذب الأرواح وتتألم من ذلك الأجساد . أه .

وما ذكره في أرواح المطيعين مخالف لما صحَّح من أنها تمتنع في الجنة .

وفي الإفصاح أن المنعم من الأرواح على جهات مختلفة ، منها ما هو

طائر في شجر الجنة ، ومنها ماهو في حواصل طير خضر ، ومنها ما يأوى إلى قناديل تحت العرش ، ومنها ماهو في حواصل طير بيض ، ومنها ماهو في حواصل طير كالزراير ، ومنها ماهو في أشخاص صور . من صور الجنة، ومنها ماهو في صورة تخلق من ثواب أعمالهم ، ومنها ما تسرح وتتردد إلى جثتها وتزورها ، ومنها ما تتلقى أرواح المقبوضين ، ومن سوى ذلك ماهو في كفالة ميكائيل عليه السلام ، ومنها ماهو في كفالة آدم عليه السلام ، ومنها ماهو في كفالة إبراهيم عليه السلام . أه .

قال القرطبي : وهذا قول حسن يجمع الأخبار حتى لا تتدافع ، وارتضاه الجلال السيوطي .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن مالك قال : بلغني أن الروح مرسلّة تذهب حيث شاءت .. وهو إن صح ليس على إطلاقه .

وقيل في مستقر الأرواح غير ذلك ، حتى زعم بعضهم أن مستقرها العدم المحض ، وهو مبني على أنها من الأعراض .. وهي الحياة .. وهو قول باطل عاطل فاسد كاسد ، يرده الكتاب والسنة والإجماع والعقل السليم .

قول العارف ابن برجان :

ويعجبنى في هذا الفصل ما ذكره العارف ابن برجان في شرح أسماء الله الحسنی حيث قال :

والنفس مبراه من باطن ما خلق منه الجسم ، وهى روح الجسم ، وأوجد تبارك وتعالى الروح من باطن ما برأ منه النفس ، وهو للنفس بمنزلة النفس للجسم ، والنفس حجابها ، والروح يوصف بالحياة

بإحياء الله تعالى شأنه له ، وموته خمود إلى ما شاء الله تعالى يوم خمود الأرواح ، والجسم يوصف بالموت حتى يحیی بالروح ، وموته مفارقة الروح إياه ، وإذا فارق هذا العبد الروحاني الجسم صعد به ، فإن كان مؤمناً فتحت له أبواب السماء حتى يصعد إلى ربه عز وجل ، فيؤمر بالسجود فيسجد ، ثم يجعل حقيقته النفسانية تعمر السفلى من قبره إلى حيث شاء الله تعالى من الجو ، وحقيقته الروحانية تعمر العلو من السماء الدنيا إلى السابعة في سرور ونعيم ، ولذلك لقي رسول الله ﷺ موسى عليه السلام قائماً في قبره يصلى وإبراهيم عليه السلام تحت الشجرة قبل صعوده إلى السماء الدنيا ولقيهما في السموات العلى ، فتلك أرواحهما وهذه نفوسهما وإجسادهما في قبورهما .. وإن كان شقيماً لم يفتح له فرمى من علو إلى الأرض . أهـ .

وفيه القول بالمغايرة بين الروح والنفس ، وبهذا التحقيق تندفع معارضات كثيرة واعتراضات وفيرة .

ويعلم أن حديث : « مامن أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام »^(١) ليس نصاً في أن الروح على القبر ، إذ يفهم منه أن الذى فى القبر حقيقته النفسانية المتصلة بالروح إتصلاً لا يعلم كنهه إلا الله تعالى .

وللروح مع ذلك أحوالاً وأطواراً لا يعلمها إلا الله تعالى .. فقد تكون مستغرقة بمشاهد جمال الله تعالى وجلاله سبحانه ونحو ذلك .. وقد تصحو عن ذلك الاستغراق وهو المراد برد الروح فى خبر « مامن أحد يُسلم علىّ إلا ردّ الله تعالى روحى فأرد عليه السلام »^(٢) .

(١) ذكره ابن القيم فى كتابه « الروح » وعزاه إلى ابن عبد البر من حديث ابن عباس .

(٢) رواه أبوداود فى سننه ، كتاب « المناسك » .

والذى ينبغى أن يقول عليه مع ما ذكر أن الأرواح وإن اختلف مستقرها ، بمعنى محلها الذى أعطيته بفضل الله تعالى جزاء عملها ولكن لها جولانا فى مُلك الله تعالى حيث شاء جل جلاله ، ولا يكون إلا بعد الإذن ، وهى متفاوتة فى ذلك حسب تفاوتها فى القرب والزلفى من الله تعالى ، حتى أن بعض الأرواح الطاهرة لتظهر فيراها من شاء الله تعالى من الأحياء يقظة ، وأن أرواح الموتى تتلاقى وتتراور وتذاكر ..

وقد تتلاقى أرواح الأموات والأحياء مناماً ، ولا ينكر ذلك إلا من يجعل الرؤيا خيالات لا أصل لها ، وذلك لا يلتفت إليه .. لكن لا ينبغى أن يبنى على ذلك حكم شرعى لاحتمال عدم الصحة وإن قامت قرينة عليها .

وما صح من أن ثابت بن قيس بن شماس خرج مع خالد بن الوليد إلى حرب مسيلمة فاستشهد رضى الله تعالى عنه ، وكان عليه درع نفيسة ، فمرَّ به رجل من المسلمين ، فأخذها ، فبينا رجل من الجند نائم إذ أتاه ثابت فى منامه فقال له : أوصيك بوصية ، فإياك أن تقول هذا حلم فتضيّعه ، إئنى لما قُتلت أمس مرَّ بى رجل من المسلمين ، فأخذ درعى ، ومنزله فى أقصى الناس ، وعند خبائه فرس يستمد فى طوله ، وقد كفى على الدرع برمة ، وفوق البرمة رحل ، فأنت خالداً فمره أن يبعث إلى درعى فيأخذها ، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ فقل له : إن على من الدّين كذا وكذا ، وفلان من رقيقى عتيق .. فأتى الرجل خالداً فأخبره ، فبعث إلى الدرع وأتى بها ، وحَدَّث أباً بكر رضى الله عنه برؤياه فأجاز وصيته .
وأصل قصة ثابت بن قيس كما ذكرها ابن القيم فى كتابه هو :

قال أبو عمر : أخبرنا عبد الوارث بن سفيان ، ثنا قاسم بن أصبغ ، ثنا أبو الزنباع روح بن الفرغ ، ثنا سعيد بن عنبر وعبد العزيز ابن يحيى المدنى ، ثنا مالك بن أنس عن ابن شهاب عن إسماعيل بن محمد بن ثابت الأنصارى عن ثابت بن قيس بن شماس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له : « يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ؟ » قال مالك : فقتل ثابت بن قيس يوم اليمامة شهيداً .

قال أبو عمرو : روى هشام بن عمار عن صدقة بن خالد ، ثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال : حدثنا عطاء الخراساني ، حدثني ابنة ثابت بن قيس بن شماس قالت : « لما نزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ [الحجرات : ٢] دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ففقدته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأرسل إليه يسأله ما خبره ؟ قال : أنا رجل شديد الصوت أخاف أن يكون قد حبط عملى ، قال : لست منهم ، بل تعيش بخير وتموت بخير ، قال ثم أنزل الله ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : ٢٣] فأغلق عليه بابه وطفق يبكى ففقدته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل إليه فأخبره ، فقال : يا رسول الله إني أحب الجمال وأحب أن أسود قومى ، فقال : « لست منهم بل تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة » .

قالت : فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة فلما التقوا أو انكشفوا قال ثابت وسلم مولى أبى خديفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم حفر كل واحد له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قتلا ، وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة وذكر بقية القصة .

وقد ذكر ذلك ابن عبد البر وغيره وأجاب عنه بأن ذلك كان بإجازة الوارث وهي بنته لغلبة ظن صدق الرؤيا بما قام من القرينة ، ولو لم تجز لم يسغ لأبى بكر رضى الله تعالى عنه ذلك بمجرد الرؤيا .

وقيل : إن أبا بكر لم يرد الرد ففعل ذلك من حصة بيت المال .

ومثل هذه القصة قصة صعب بن جثامة وعوف بن مالك ، وقد ذكرها ابن القيم في كتاب (الروح) وهي أغرب مما ذكر بكثير .
صح عن حماد بن سلمة ، عن ثابت عن شهر بن حوشب أن الصعب بن جثامة وعوف بن مالك كانا متواخيين قال صعب لعوف : أى أخى أينما مات قبل صاحبه فليتراياً له . قال : أو يكون ذلك ؟ قال : نعم . فمات صعب فرآه عوف فيما يرى النائم كأنه قد أتاه قال : قلت أى أخى . قال : نعم . قلت : ما فعل بكم ؟ قال : غفر لنا بعد المصائب . قال : ورأيت لمعة سوداء في عنقه . قلت : أى أخى ما هذا ؟ قال عشرة دنانير استسلفتها من فلان اليهودى فهن في قرنى فاعطوه إياها ، واعلم أى أخى أنه لم يحدث في أهلى حدث بعد موتى إلا قد لحق بى خيره حتى هرة لنا ماتت منذ أيام . واعلم أن بنتى تموت إلى ستة أيام فاستوصوا بها معروفاً . فلما أصبحت قلت إن فى هذا لمعلما فأتيت أهله فقالوا : مرحباً بعوف أهكذا تصنعون بتركة إخوانكم ؟ لم تقربنا منذ مات صعب ، قال : فاعتلت بما يعتل به الناس فنظرت إلى القرن فأنزلته فانتشلت ما فيه ، فوجدت الصرة التى فيها الدنانير فبعثت بها إلى اليهودى فقلت : هل كان لك على صعب شئ ؟ قال : رحم الله صعباً كان من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هى له قلت : لتخيرنى . قال : نعم أسلفته عشرة دنانير فنبذتها إليه ، قال : هى والله بأعيتانها قال قلت : هذه واحدة قال فقلت : هل حدث فيكم حدث بعد موت صعب ؟ قالوا : نعم

حدث فينا كذا ، حدث فينا كذا قال : قلت اذكروا . قالوا : نعم هرة ماتت منذ أيام فقلت هاتان اثنتان قلت : أين ابنة أخى ؟ قالوا : تلعب فأتيت بها فمستها فإذا هى محمولة فقلت استوصوا بها معروفاً مضت ستة أيام .

وربما يؤذن لأرواح بعض الناس فى زيارة أهليهم كما ورد فى بعض الآثار ، وبعض الأرواح تحبس فى قبرها أو حيث شاء الله تعالى عن مقامها كروح من يموت وعليه دين استدانه فى محرم لا مطلقاً كما هو المشهور .. وتحقيقه فى شرح السمائل للعلامة ابن حجر .

ثم اعلم أن اتصال الروح بالبدن لا يختص بجزء دون جزء ، بل هى متصلة مشرقة على سائر أجزائه وإن تفرقت وكان جزء بالمشرق وجزء بالمغرب .. ولعل هذا الإشراق على الأجزاء الأصلية لأنها التى يقوم بها الإنسان من قبره يوم القيامة على ما اختاره جمع .

واعلم أيضاً أن الروح على القول بتجردها لا مستقر لها ، بل لا يُقال إنها داخل العالم أو خارجه كما سمعت ، وإنما المستقر حيثما للبدن الذى تتعلق به .

وقد نص بعض الصوفية على أنه لا مانع من أن تتعلق نفس ببدنين فأكثر ، بل هو واقع عندهم .. وذكر بعضهم أن أحد البدنين هو البدن الأصلى والآخر مثالى يظهر للعيان على وجه خرق العادة .. وقال آخر : إن الآخر من باب تطور الروح وظهورها بصورة على نحو ظهور جبريل عليه السلام بصورة دحية الكلبي ، وظهور القرآن لحافظه بصورة الرجل الشاحب يوم القيامة .

والفلاسفة قالوا : لا يجوز أن تتعلق نفس واحدة بأبدان كثيرة ،

لأنه يلزم أن يكون معلوم أحدها معلوم الآخر ، ومجهول أحدها مجهول الآخر ، ومعلوم أن الأمر ليس كذلك .. ولا يخفى أن هذا الدليل يدل على أن كل إنسانين يعلم أحدهما مالا يعلم الآخر فإن نفسيهما متغايرتان ، فلم لا يجوز وجود إنسانين يتعلق ببدنيهما نفس واحدة ويكون كل ما علمه أحدهما علمه الآخر لا محالة ، وما يجمله أحدهما يكون مجهولاً للآخر لا بد لعدم الجواز من دليل .

وعلى ما ذكره هؤلاء الصوفية يجوز أن تتعلق الروح ببدن في الجنة وبيدن آخر حيث شاء الله تعالى ، بل يجوز أن تظهر في صور شتى في أماكن متعددة على حد ما قالوه في جبريل عليه السلام أنه في حال ظهوره في صورة دحية أو أعراني غيره بين يدي النبي ﷺ لم يفارق سدرة المنتهى .. وأنت تعلم ما يقولون في تجلّي الله تعالى في الصور ، وسمعت خبر : « إن الله تعالى خلق آدم على صورته » (١) .. ومن هنا قالوا : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، فافهم الإشارة ، ولعمري هي عبارة .

مستقر أرواح الحيوانات .

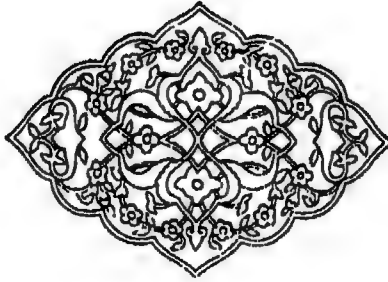
ثم إن أرواح سائر الحيوانات من البهائم ونحوها قيل : تكون بعد المفارقة في الهواء ولا اتصال لها بالأبدان . وقيل : تعدم ولا يعجز على الله شيء .

ومن الناس من قال : إن كان للحيوانات حشر يوم القيامة كما هو

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب « الاستئذان » ، ومسلم في صحيحه كتاب « البر » حديث رقم

المشهور الذى تقتضيه ظواهر الآيات والأخبار ، فالأولى أن يُقال ببقاء
أرواحها فى الهواء ، أو حيث شاء الله تعالى .. وإن لم يكن لها حشر —
كما ذهب إليه الغزالي —

هذا ، وبقيت أبحاث كثيرة تركناها لضيق القفص واتساع دائرة
الغصص ، ولعل فيما ذكرناه هنا مع ما ذكرناه فيما قبل كفاية لأهل
البداية وهداية لمن ساعدته العناية .. والله عز وجل ولى الكرم
والجود ، ومنه سبحانه بدء كل شئ وإليه جل وعلا يعود .



تعليق
للأستاذ الكبير
عباس محمود العقاد
من كتاب الفلسفة القرآنية
مسألة الروح

مسألة الروح

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾

مسألة الروح أعضل مسائل العلم والفلسفة ومذاهب التفكير على التعميم منذ فكر الإنسان في حقائق الأشياء ، بين جميع أصحاب النحل والآراء ، في جميع العصور .

وسواء فهمنا من الروح أنها جوهر مجرد تقوم به حياة الأجساد ، أو فهمنا كما يفهم الماديون أنها ظاهرة الحياة في تركيب من تراكيب المادة ، فلا يزال العلم بحقيقتها قليلاً أو أقل من القليل .

لأن الماديين الذين يعتبرونها قوة من قوى المادة لم يخرجوا بها عن تسجيل الحس كما يرونه ، ولم يستطيعوا قط تعليل الفارق بين الخلية المادية والخلية الحية بعلّة من العلل المادية نفسها فضلاً عن العلل التي تتجاوز المادة إلى ما وراءها . ولم ينكروا أن الفارق عظيم ، وأنه أبعد فارق بين شيئين من هذه الأشياء التي تقع في الكون المحسوس أو الكون المعقول ..

فمن معجزات القرآن أنه وضعها هذا الموضع الصحيح من الفلسفة والعلم ، وجعلها أعضل العضلات التي يتساءل عنها الناس بغير استثناء .

ويزيد في تقدير هذه المعجزة أن القرآن لم يستكثر على الفكر الإنساني أن يخوض في المسألة الإلهية ، وأن يصل إلى الإيمان بالله من طريق البحث والاستدلال والنظر في آيات الخلق وعجائب الطبيعة .

فالعقل يهتدى إلى وجود الله من النظر في وجود الأشياء ووجود الأحياء .. ولكنه لا يهتدى إلى حقيقة الروح من هذا الطريق ، ولا يذهب فيها مذهبا أبعد ولا أعمق من الإحالة إلى مصدر الموجودات جميعاً ، وهى إرادة الله ، أو أمر الله .

وقد عجب بعض المفسرين لذلك ، وراحوا يتساءلون : أتكون مسألة الروح أكبر من المسألة الإلهية وهى غاية الغايات فى سبح العقول ؟

ولكنهم فى الواقع يرجعون بالعجب إلى غير مرجعه الأصيل ، لأن المعضلة الفكرية لا تبلغ مبلغ الإعضال بمقدار عظمتها واتساعها بل بمقدار دقتها وخفائها .. وقد تكون عوارض الشمس أوضح فى رأى العلماء من عوارض الذرة الخفية ، وبينهما من التفاوت فى القدر ذلك الأمد البعيد ..

وقد أجمل الإمام الرازى أسباب هذا الإعضال فى مسألة الروح فقال : « .. إنهم سألوا عن الروح وأنه ﷺ أجاب عنه على أحسن الوجوه . وبيانه أن المذكور فى الآية أنهم سألوه عن الروح والسؤال يقع على وجوه :

أحدهما : أن يقال ما ماهيته ؟ هل هو متحيز أو حال فى المتحيز أو موجود غير متحيز ولا حال فيه ؟ .

وثانيهما : أن يقال أهو قديم أو حادث ؟

وثالثها : أن يقال هل هو يبقى بعد فناء الأجسام أو يفنى ؟

ورابعها : أن يقال ما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها ؟

وبالجملة فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة ، وليست فى الآية دلالة

على أنهم عن أى هذه المسائل سألوا ، إلا أنه تعالى ذكر في الجواب : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ ، وهذا الجواب لا يليق إلا بمسألتين : إحداهما : السؤال عن الماهية أهو عبارة عن أجسام موجودة في داخل البدن متولدة عن امتزاج الطبائع والأخلاق ؟ أو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب ، أو عن عرض آخر قائم بهذه الأجسام ، أو عن موجود يغير هذه الأشياء ؟ فأجاب الله تعالى بأنه موجود مغاير لهذه الأشياء ، بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث قوله : كن فيكون . فهو موجود يحدث من أمر الله وتكوينه وتأثيره في إفادة الحياة للجسد ، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه مطلقاً وهو المقصود من قوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .

وثانيتهما : السؤال عن قدمها وحدوثها ، فإن لفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل كقوله تعالى : ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ . فقوله من أمر ربي معناه من فعل ربي ، فهذا الجواب يدل على أنهم سألوه عن قدمه وحدوثه فقال : بلى هو حادث . وإنما حصل بفعل الله وتكوينه ثم احتج على حدوثه بقوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ . يعنى أن الأرواح في مبدأ الفطرة خالية من العلوم كلها . ثم تحصل فيها المعارف والعلوم ، فهي لاتزال متغيرة من حال إلى حال ، والتغير من أمارات الحدوث .

وتلخيص الإمام الرازى للمعضلة شامل لجوانبها المتعددة ، كما بدت للمفكرين من الفلاسفة الأقدمين وبخاصة علماء الكلام .

فروض الأقدمين وفروض المحدثين :

ولا نظن أن المحدثين جاءوا بفرض من الفروض في تفسير الروح لم يسبقهم إليه الأقدمون ، مع ملاحظة الفارق في بحوث علم الحياة ووظائف الأعضاء بين علماء اليوم وعلماء الزمن القديم .

فمن المفكرين الأقدمين من قال : إن الروح أجسام لطيفة سارية في البدن سريان ماء الورد في الورد ، باقية من أول العمر إلى آخره لا يتطرق إليه تخلل ولا تبدل ، حتى إذا قطع عضو من البدن انقبض مافيه من تلك الأجزاء إلى سائر الأعضاء .

ومنهم من قال : إنه جزء لا يتجزأ في القلب ، أو قال : إنه جسم هوائى في القلب ، أو قال : إنه جسم هوائى في الدماغ ، أو قال : إنه قوة في الدماغ وهو مبدأ الحس والحركة ، أو قال : إنه أجزاء نارية وهى المسماة بالحرارة الغريزية ، أو قال : إنه الدم المعتدل تقوى الحياة باعتداله وتفننى بفنائه ، أو قال : إنه جسم بخارى يتكون من لطافة الأخلاط وبخاريتها تتكون الأخلاط من كثافتها ، وهو الحامل للقوى الثلاث : وهى قوة الروح الحيوانى ، وقوة الروح النفسانى ، وقوة الروح الطبيعى .

ومنهم من قال : بأن الروح جوهر مجرد يتفاوت في التجرد والصفاء ، فهو في العارفين الخالصين أصفى منه في غيرهم من ذوى الأرواح ..

ومنهم من قال غير ذلك ، ولم يخرج عن فحوى فرض من تلك الفروض ، كما أحصاها صاحب كشاف اصطلاحات الفنون في مادة الروح .

موقف المفكرين المحدثين :

أما المفكرون المحدثون ، فهم في الجملة بين قولين : قول بنشوء الحياة من جوهر مجرد ، وقول بنشئها من استعداد في المادة يظهر مع التطور والتركيب ..

لا خلاف بين القائلين بالجواهر المجرد قدامى ومحدثين :

وليس بين القائلين بالجواهر المجرد من الأقدمين والمحدثين اختلاف كبير في غير أسلوب التعبير ..

فالمحدثون يقولون : إن الجسم لا ينشئ الحياة ولا طاقة للمادة بتوليد القوة الحيوية ، ولكنها إذا بلغت مبلغاً معلوماً من الاستعداد صلحت لحلول الروح فيها وتهيأت لخدمتها .. مثلها في ذلك مثل الجهاز الذى يصلح بالتركيب لقبول الكهرباء ، فإن أجزاءه المتفرقة لا تتحرك ولا تقبل العمل الكهربائى إذا بقيت على تفرقها ، أو اجتمعت على نحو غير النحو الصالح لاستقبال التيار وتلبية حركاته . وكذلك الأعضاء الجسدية لا تخلق الحياة ، ولكنها تصلح لاستقبالها وتلبية حركاتها متى تم تركيبها على النحو المعروف .

والأقدمون يقولون بمثل ذلك ، ولكنهم يعبرون عنه بأسلوبهم المنطقى الذى يستخدمونه للتمييز بين الصور والأجسام .. فالروح عندهم « كمال أول لجسم طبيعى آلى » .

والكمال عندهم هو الذى تتحقق به ماهية الشيء .. وهو قسمان : قسم يصدر منه الفعل وهو الكمال الأول ، وقسم هو الفعل نفسه وهو الكمال الثانى .

والانسان جسم آلى لا تتحقق له الانسانية إلا بحلول الروح فيه ، فلا تتحقق له الانسانية بمجرد وجود الأعضاء فيه بل باستقبال هذه الأعضاء لمصدر فعلها وحركتها ، وهو الروح .. فالروح إذن هى الكمال الأول لتركيب جسم الانسان .

دليل الأقدمين على أن الروح جوهر مجرد :

ودليل الأقدمين على أن الروح جوهر مجرد يلخصه الشهرستاني في كتاب نهاية الإقدام في علم الكلام إذ يقول : « إن العلم المجرد الكلى لا يجوز أن يحل في جسم ، وكل ما لا يجوز أن يحل في جسم فإذا حل ففى غير جسم ، فالعلم المجرد الكلى إذا حل حل في غير جسم » ويؤيد ذلك أنه غير قابل للانقسام .

ويوشك الأقدمون والمحدثون أن يتلاقوا في توضيح المشكلة التى تنجم عن القول بتجرد الروح ثم القول بتأثيرها فى الأجسام ..

فالأقدمون : يجعلون الجواهر المجردة درجات فى التلبس بالمادة وقابلية الاشتراك معها فى عملها ، فلا يؤثر الجوهر المجرد فى المادة مباشرة بل يؤثر فيها بواسطة جوهر يقاربه من جهة ويقارب المادة من جهة أخرى .

والمحدثون : يقيمون هذه القنطرة بين العالمين — عالم الروح وعالم المادة — بفروض كثيرة .. منها أن الغدة الصنوبرية فى الدماغ هى ملتقى الروح بالجسد ، ومنها أن يرتفعوا بالمادة الجسدية إلى غايتها من الصفاء لكى تتقبل الأثر من عالم الروح ، ومنها أن يزيلوا العجب من تأثير الأرواح فى الأجسام بقوله : إن تأثير الروح فى الجسد ليس بأعجب من هذه المؤثرات التى نراها تقع من الأجسام . فلا داعى للجزم بامتناع أثر الجوهر المجرد فى صور المادة على اختلافها بين الجوامد والأحياء .

وكل فرض من هذه الفروض لا يزعم صاحبه أنه قال فى معضلة الروح قولاً يغنيه عن التمثل فى هذه المعضلة بالآية القرآنية الكريمة : ﴿ قل الروح من أمر ربي . وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .

موقف الماديين :

والماديون الذين يقولون بنشأة الحياة من المادة لا يُنبئون — بطبيعة الحال — إلى علم الله في معضلة من المعضلات . ولكنهم يُنبئون على الرغم منهم إلى رأى في تعليل الحياة هو أعجز وأبلغ في التسليم من إنابة المؤمنين ، لأن قصارى ما ذهبوا إليه أن الحياة حصلت لأنها حصلت ، أو لأنها قابلة للحصول .

فهم يعترفون بالفارق البعيد بين الذرة المادية والخلية الحية ، ولكنهم يقولون : إن الخلية الحية قد تترقى بالتطور والتركيب المتلاحق إلى اكتساب خصائص الحياة .

ويمثلون لذلك بالعناصر التى تتركب فتظهر فيها بعد التركيب خصائص لم تكن لعنصر من عناصرها على انفراد .

وهكذا يترقى التركيب بالمادة إلى مرتبة النبات فالحيوان فالإنسان العاقل ، فما فوق الإنسان مع تطاول الزمان .

ولكنهم لا يذكرون دليلاً واحداً على حدوث الحياة من مثل هذا التركيب .. ولا يذكرون سبباً مادياً معقولاً لالتزام المادة سلم الارتقاء طبقة فوق طبقة منذ الأزل الذى لا يعرف له ابتداء ؟ ولا يذكرون سبباً مادياً واحداً يوجب أن تنفرد بعض الذرات المادية بهذا التطور دون بعضها ، وهى سواء فى الكنه والحركة وقوانين الوجود ، ولا يشعرون بقصور هذا الفرض عن تفسير الخصائص التى تتوزع بين ألوف الخلايا التى تتولد منها الأنواع الحية ، وفى كل خلية منها قدرة على التجدد والتعويض ونقل طبائع النوع كبله ، وهى فى دقتها أخفى من أن تتراءى الألوف منها للعين بغير منظار .

فإن الناسلات التى تنشئ النوع الإنسانى كله يمكن أن تجمع فى

قمع صغير من أقماع الخياطة ، وفي هذا القمع الصغير تكمن جميع الخصائص التي يختلف بها ملايين البشر في الأفكار والعادات والأعضاء والألوان . وتكمن جميع الموروثات التي تلقاها سكان الكرة الأرضية عن آبائهم وأجدادهم منذ مئات الألوف من السنين . وجميع الموروثات التي يخلفونها لأعقابهم إلى مئات ألوف أخرى بغير انتهاء . فإذا كانت الحياة معاني تقوم على الوعي الذي لا يوجد في المادة ويكفيها مثل هذا الحيز من الامتداد وهو أقرب إلى المعقولات منه إلى المحسوسات — فماذا أبطل الماديون من القول بقوة الروح المعنوية ؟ أو ماذا أبطلوا من القول بتوسط هذه المعاني بين الوجود المجرد والوجود المحسوس ؟

إذا كانت الحياة لا توجد في كل مادة ، وكانت المادة الخاصة التي توجد فيها تتلقاها معاني لا يحددها الحس ، وتأخذ منها كل هذه الأجسام التي تملأ فضاء الكرة الأرضية ، فهل هذا هو تفسير السر المغلق أو هذا هو السر المغلق الذي يدق عن العقول ؟

وأي أجسام بل أي آكام من الأجسام ؟ أهى أجسام وكفى تتساوى في جميع الأشكال والأحجام ؟

كلا .. بل هى أجسام تختلف كل ذرة منها عن كل ذرة ، ولا تنوب واحدة منها عن الأخرى أو تختلط شخصية منها بشخصية سواها . فأين يتبدى التلغيز والتخمين إذا كان هذا نهاية التفسير والتبيين ؟

وإذا كان الماديون قد بلغوا بتجريد قوة الحياة أقصى ما يستطيعه المادى من صفات التجريد ، فإن القول بالتجريد المطلق لا يقطع الكلام في مسألة الروح ، ولا يتركه بغير بقية طويلة تستتبع الأسئلة .

الكثيرة بغير جواب ..

فهل الجوهر المجرد البسيط يقبل الفناء ؟ وهل كان معدوماً قبل أن يوجد ؟

إن فريقاً من الفلاسفة يقول : إن الجوهر البسيط لا يتغير ولا يفنى ، لأن الانحلال إنما يأتي من جهة التركيب وليس في الجوهر البسيط شيء مركب .. وما ليس بقابل للفناء غير قابل للإيجاد بعد عدم ، وليس له ابتداء ولا إنتهاء ..

وبعض المتدينين يقول بقدم العالم كله لأنه لا يخلق في زمان ، والجواهر البسيطة من باب أولى قديمة على هذا الاعتبار .. وقد يستشهد هؤلاء على قدم الروح بأنها من روح الله : ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه . وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾^(١) . فالروح من روح الله وهو أزلى أبدي بلا أول ولا آخر ولا زمان ولا مكان ..

ومنهم من يقول بحدوث الروح ويعنى بذلك أنها غير قديمة ، وينكر قدم العالم على الإجمال .

أسئلة ترد على الخاطر :

وهنا يرد على الخاطر سؤال عن تساوى الأرواح في القدم أو تساويها في الحدوث ..

فهل وجدت أرواح الآباء والأبناء والأحفاد في وقت واحد ؟ أو

(١) سورة السجدة : آية ٦ - ٩

وجدت على تفاوت في الترتيب ؟ وهل تنقطع صلة الأبوة بين الأرواح ، أو هناك أرواح توصف بالأبوة ، وأرواح توصف بالبنوة على النحو الذى نشهده فى الحياة ؟ وما الفارق بين أرواح الآباء والأمهات وأرواح الذكور والإناث ؟

ويرد على الخاطر سؤال آخر عن علاقة الروح بالجسد بعد دخوله والامتزاج بأعضائه : هل تأتى بالمعرفة معها من عالم الأرواح ، أو هى تتلقى المعرفة من ملابسة الأعضاء وحس الحواس التى تتألف من البصر والسمع واللمس والشم والذوق وما إليها ؟ وهل تحمل معرفتها معها بعد فراق الجسد أو تتركها وراءها بعد انقطاع الصلة بينها وبين الإحساس بالحواس ؟

ويرد على الخاطر سؤال غير هذين السؤالين فى مسألة الثواب والعقاب ، فهل تخلص الروح من الجسد كما دخلته مبرأة من الذنوب ؟ وهل يلصق شئ من الجسد بشئ من الروح ؟ وإذا كانت قبل نزولها فيه وخروجها منه خالصة من تلك الذنوب فكيف يكون العقاب ؟ أو كيف تعاقب الأجساد بمعزل عن الأرواح ؟ أو كيف تعاقب الأرواح بمعزل عن الأجساد ؟

والذين قالوا بدخول الروح فى الأجساد أكثر من مرة يسألون : لماذا ينسى الروح حياته الأولى فى الجسد القديم بعد دخوله فى الجسد الجديد ؟ وهل يعود إلى التذكر بعد التجرد من الحياة الجسدية ؟ أو هو فى كل مرة يرجع إلى ما كان عليه قبل الحياة الجسدية كأنه لم يتلبس قط بالأجساد ! .. وماذا تفيد الروح من تكرار الحياة إذا كانت تبقى بعد موت كل جسد كما كانت قبل حياتها فيه ؟ هل الروح والنفس والعقل شئ واحد ؟!

ولا يقل عن هذه الأسئلة في الإعضال سؤال السائلين : هل الروح والنفس والعقل شيء واحد ، أو هي أشياء مختلفات ؟ وهل هي فردية أو عامة في جميع الأحياء العاقلة ؟

فمنهم من يقول : إن العقل والروح والجسد كلها هي قوام العنصر المجرد في الإنسان ، وأن ما عداها عنصر جسدى قابل للانحلال ..

ومنهم من يقول .أن العقل وحده هو العنصر المجرد ، وإن النفس درجات ، والروح في أعلى هذه الدرجات .. ثم تنحدر درجات النفس فتلتقي بالجسد في الحياة الحيوانية ، ولا يختلف شأنها في هذه الحالة عن شأن الدم الذى تنبعث منه حركة الأعضاء ، أو شأن الأبخرة اللطيفة التى تتخلل تلك الأعضاء .

والقائلون بذلك يقولون : إن العقل عام في جميع العقلاء ، وانه غير متوقف على الأفراد ؛ لأن أحكامه واحدة في جميع العقول ، وقضاياها ثابتة في جميع الأحوال ..

وذلك على خلاف النفس التى تختلف بأذواقها ومشتياتها بين فرد وفرد ، وبين حال وحال ..

فالعقل إذن هو الخالد الباقي الذى لا يفنى بفناء أجساد الأحياء . أما النفس فشأنها شأن الجسد في التميز والتحيز وقبول الفناء ..

موقف بعض الماديين :

ومن الماديين من يأتى وسطاً بين المجردين والمجسدين ، فعندهم أن وجود الروح لاحق لوجود الجسد ، وأن الجسد إذا ترقى في التركيب نشأت من تركيبه وحدة معنوية أو شخصية مستقلة صالحة للبقاء بمعزل عنه ، وكانت وجوداً جديداً لا ينعدم لأن الموجود لا يقبل

العدم .. ولا فرق في ذلك بين وجود الكيفية ووجود الكم أو المقدار .

وأقرب ما يمثلون به لذلك وجود القصيدة في قريحة الشاعر ، أو وجود اللحن الموسيقى في قريحة الموسيقار ، أو وجود الفكرة في قريحة الفيلسوف ..

فهذه الوحدات المعنوية من عمل الشاعر والموسيقار والفيلسوف ، ولكنها استقلت بوجود قابل للبقاء بعد زوال من خلقوها وانفردوا بخلقها بين أصحاب القرائح التي لا تحصى .

وتمثيلهم هذا تمثيل تقريبي وليس بتمثيل تحقيق ، لأنهم يقصدون أن « الشخصية الروحية » التي يتمخص عنها تركيب الجسد أو تركيب الدماغ خاصة هي كيان قائم بذاته ، وليس بالكيان الذي يتوقف على غيره كقصيدة الشاعر ولحن الموسيقار وفكرة الفيلسوف .. وكل منها لا يقوم إلا بسامع أو معين .

أحاديث القائلين بتحضير الأرواح :

وإذا أردنا أن نشمل بالكلام في الروح أحاديث القائلين بتحضير الأرواح ، فالأسئلة هنا تتوارد من أصحاب الدين كما تتوارد من أصحاب العلم وأصحاب الفلسفة .

فلك أن تسأل : هل السيطرة على الأرواح مسألة قُديسية إلهية ، أو هي مسألة آلية صناعية ؟ ..

إن كانت قُديسية إلهية فما هذه الآلات والأشعة والمصورات والحركات ؟ وما هذا الارتباط بين تحضير الأرواح الحديث والمخترعات الحديثة ؟ وما هذه السيطرة على الأرواح بسلطان تلك الآلات

والمخترعات في أيدي قوم لم تعرف عنهم قداسة ضمير أو رياضة نسك
وصلاح ؟

وإن كانت آلية صناعية ، فأى تغليب للمادة على الروح أقوى من
هذا التغليب الذي ينوط كشف الأرواح بتقدم الصناعات
والمخترعات .. ويجعل عالم الروح كعالم المادة تابعاً لآلة تدار أو مخترع
جديد لم يكن معروفاً قبل القرن العشرين ؟ وكيف تفسير أن عالم
الروح كله لم يستطع بجهوده وبواعثه أن ينفذ إلى عالم المادة ؟ .. وأن
عالم المادة استطاع ببعض الأجهزة أن ينفذ إلى عالم الروح ؟ .. وهل
سعت الأرواح إلينا فعجزت في مسعاها ؟ أو هي لم تسع قط ونحن
الذين أرغمناها على الظهور لنا والتحدث إلينا ؟ .. وما معنى قدرتنا
وعجزها في هذه الجهود التي لا قوة لنا فيها لغير أدوات التحضير ؟

تعميم الروح في القرآن وعلام يدل ؟

وإلى هنا خصصناه الروح بالمعنى الذي يقصد به قوام الحياة — أو
قوام الحياة والعقل — في الشخصية الإنسانية .

ولكن الروح عممت في القرآن الكريم لغير هذا المعنى ، فسمى
جبريل بالروح الأمين .. ونسبت إلى الله روح بمعنى الرحمة تارة ،
وبمعنى القوة أو الحياة تارة ، وبمعنى العلم القدسي في غير هذه
المواضع : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على
من يشاء من عباده ﴾ (١) .. ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من
أمرنا ﴾ (٢) .

وبهذه المعاني كلها ترتفع الروح من الوجود المادى إلى الوجود
المنزه عن المادة وخصائصها ، وقد تلحق بالوجود الإلهي الذي

(١) غافر : آية ١٥ :

(٢) الشورى : آية ١٥٢ .

لا شبيه له فى الموجودات ..

ولكن الاصطلاح الذى لا يتعرض أصحابه للحصر والتحقيق يطلق الروح أحياناً على معنى الحياة فى كل ذى حياة فيقولون : « كل ذى روح » ويقصدون به عالم الحيوان ، ويجمعون بين الروح والنفس فى معنى واحد ، ثم يخلون النبات نفساً ويفرقون بينها وبين نفس الحيوان ونفس الإنسان ببعض الخصائص التى تجعل معنى الكائنات « النفسية » أحياناً بمعنى الكائنات العضوية فى اصطلاح العلم الحديث ..

والذين يطلقون الاصطلاح هذا الاطلاق ، فيهم المؤمنون بالدين ، وفيهم من تقدم الأديان الكتابية ، وفيهم من ظهر بعدها وأنكرها كما ينكرها الدهريون الذين قالوا إنها حياتنا الدنيا نموت فيها ونحيا ..

فصاحب الهدية السعيدية المولوى محمد فضل الماتريدى يلخص معانى النفس فيقول : « إن المركب الذى له مزاج وليس من المعدنيات يكون ذا نفس أرضية ، والنفس الأرضية إما نفس نباتية أو نفس حيوانية أو نفس ناطقة .. وعرفوا النفس النباتية بأنها كمال أول الجسم طبيعى آلى من حيث يتغذى وينمو » .

ثم يقول عن النفس الإنسانية : « إن النفس جوهر مجرد واحد ولها وجه إلى البدن ، ويجب أن يكون هذا الوجه غير قابل لأثر من جنس مقتضى طبيعة البدن ، ووجه إلى المبادئ العالية ويجب أن يكون دائم القبول عما هناك . والتأثير منه — فمن الجهة السفلية يتولد الأخلاق لأنها تؤثر فى البدن الموضوع لتصرفها مكملة إياه تأثيراً اختيارياً وتسمى قوة عملية وعقلا عملياً ، ومن الجهة الفوقانية يتولد العلوم لأنها تتأثر عما فوقها مستكملة فى جوهرها بحسب استعدادها ، وتسمى قوة نظرية وعقلا نظرياً . فالقوة النظرية من شأنها أن تنطبع

بالصور الكلية المجردة من المادة .. فإن كانت مجردة فلا يحتاج في أخذها إلى تجريدتها ، وإن لم تكن فتصير النفس مجردة بتجريدتها حتى لا يبقى فيها من علائق المادة .. »

مواطن الاتفاق :

فإذا أغضينا عن فوارق الأسلوب ، ففي هذا الكلام مواطن اتفاق كثيرة بين الأقدمين والمحدثين ، وبين الفلاسفة والعلماء ، وبين أصحاب الدين وغيرهم من المفكرين ..

فجميع هؤلاء متفقون على التفرقة بين الجسد العضوى والجسد الذى لا تعضى فيه ..

وجميع هؤلاء متفقون على إلحاق النبات بعالم الحياة فى خصائصها التى تميزها من المادة على الإطلاق ..

وجميع هؤلاء متفقون على أن « النطق » أو « العقل » خاصة إنسانية تميز الإنسان من الحيوان ..

ولكنهم إذا جاءوا إلى الصفة التى تكسب الحى قدرة المعرفة ، وقع بينهم أكبر اختلاف يقع بين مختلفين ..

فتوزع القوى المدركة فى النفس على حسب الاتجاه العلوى أو السفلى كلام يسيغه بعض الفلاسفة وبعض المتكلمين ولا يسيغه الآخرون .

وتدرج القوة العاقلة من الحيوان إلى الإنسان كلام ينكره الدينيون ولا يتفق عليه علماء الطبيعة الذين يجعلون العقل من عنصر غير عنصر الغريزة أو البداهة الحيوانية .

وينتهون جميعاً إلى « علم قليل » فى هذا المبحث العويص الذى

لا يدانيه في اعتيابه. مبحث آخر من مباحث الطبيعة أو ما وراء الطبيعة ..

ولسنا نسرد هذه الخلافات لنقطع فيها بقول فصل لا خلاف عليه ، فليس إلى ذلك من سبيل ..

ولسنا كذلك نسردها لنعود فيها إلى تلخيص القول في الخالق والمخلوقات ومكان الروح والحياة من تلك المخلوقات . فهذا بحث عرضنا له عند الكلام على وجود الله بما اتسع له المقام ..

ولكننا نسردها ونكتفى بمجرد سردها ، لأن مجرد السرد كاف لبيان إعجاز القرآن في وضع هذه العضلة موضعها الصحيح بين معضلات الفلسفة الكبرى في جميع الأزمان ..

فالرجل الأعمى الذى تعلم من البادية كلها غاية علمها ، أو تعلم من عصره كله غاية علمه ، لا يتأتى له أن ييسط أمامه مشكلات العقل في حقائق القوة التى تقوم بها حياة الشخصية الإنسانية أو يقوم بها تفكيرها ، ثم يحيط بما فيها من العقد وما يرد عليها من الإشكال والاستدراك ، وما تنفرد به من المغلقات بين مسألة كالمسألة الإلهية أو مسألة كمسألة الوجود بجملته في السر والعلانية ..

فإذا تتبععضلة الروح إلى مداها ، وعلم غاية ما يتاح للإنسان أن يستقصيه من حقيقتها .. فما يعلم ذلك بوحى البادية ، أو بوحى القرن السادس أو السابع للميلاد ، وإنما يعلمه بوحى من الله ..

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
هذا الكتاب في كلمات	٩
تفسير مفاتيح الغيب ومنزله العلمية	١١
قيمة التفسير العلمية	١٣
ويسألونك عن الروح	١٥
• المسألة الأولى : أقوال المفسرين	١٦
المباحث المتعلقة بالروح	١٨
• الفصل الأول : ماهية الروح وحقيقتها	٢١
• المسألة الثانية : الأقوال في نفس الروح	٢٤
• المسألة الثالثة : في شرح مذاهب الناس في حقيقة الإنسان	٢٩
- رأى جمهور المتكلمين	٢٩
- بطلان رأى المتكلمين	٣٠
• المسألة الرابعة : بيان حقيقة الإنسان ، وهل هو محسوس ؟	٣٨
• النفس ليست جسماً	٤٣
• المسألة الخامسة : أولاً : الأدلة العقلية لإثبات ذلك	٤٣
• المسألة السادسة : ثانياً : الأدلة السمعية	٥٥
• المسألة السابعة : دلالة الآية على صحة ما ذكرنا	٥٨
أدلة من قال بأن الروح جسد .. والرد عليهم ..	٥٩
• الفصل الثاني : هل الروح قديمة أو حادثة ؟	٦٣
يا أيها النفس المطمئنة	٦٤
• الفصل الثالث : هل تبقى الأرواح بعد موت الأجسام أو تفنى ؟	
وما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها ؟	٦٧
﴿ .. بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾	٦٨
○ القول بأن الشهداء يصيرون أحياء في الآخرة	٦٨
○ القول بأنهم سيصيرون أحياء في الحال	٧١
• القول بإثبات الحياة للأجساد	٧٥

- القول بالحجاز ٧٦
- ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ ٧٨
- ﴿ أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾ ٨٠

مع الإمام الآلوسي صاحب روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني

- التعريف بالمؤلف ٨٣

- منهجه في تفسيره وقيمه العلمية ٨٥
- حقيقة الروح المستول عنه ٨٧
- من الذي سأل عن الروح ؟ ٨٩
- ﴿ وما أوتيم من العلم إلا قليلاً ﴾ ٩١
- ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ ٩٣
- أوجه السؤال عن الروح ٩٥

- شرح مذاهب الناس في حقيقة الإنسان ٩٧
- حدوث الروح وقدمه ١٠١
- من يرى حدوث الروح قبل البدن ١٠١
- من يرى حدوث الروح بعد البدن ١٠٢
- الروح .. والنفس ١٠٤
- مراتب النفس ١٠٦
- هل تموت الروح أم لا ؟ ١٠٩
- تمايز الأرواح بعد مفارقتها الأبدان ١١٢
- مستقر الأرواح بعد مفارقتها الأبدان ١١٣
- تقسيم الإمام النسفي للأرواح ١١٧
- مستقر أرواح الحيوانات ١٢٤

تعليق الأستاذ عباس محمود العقاد

من كتابه : الفلسفة القرآنية ١٢٦

رقم الابداع ٣١٦٧٤ / ٨٨